فن إخماد الأفكار

محمد بن عبدالله الفريح

كاتب ومفكر

@ malfriah

ترددت كثيرًا قبل كتابة هذه السطور خوفًا من أن يتبادر إلى ظنك أنني أقصد أن تقوم بإيقاف دماغك وعقلك عن التفكير، ولكن القصد عكس ذلك تمامًا، تشير الإحصاءات الحديثة إلى عقل الإنسان يتعرض يوميًا ما بين خمسين إلى ستين ألف فكرة، تزداد مع بعض الأشخاص لتصل ما يقارب مئة ألف فكرة وتقل عن البعض لتصل إلى أقل من ذلك بكثير، من يلاحظ نمط الحياة اليوم سوف يلفت انتباهه بشدة حجم التسارع في حياتنا، مما أدى بالمقابل لتسارع الأفكار ودخولها إلى أدمغتنا بكسل قسري تبعًا لذلك، وتأثيرها الشديد على أدمغتنا،مما أصاب الكثير منا بالتشتت والنسيان وفقدان التركيز تمامًا عن كثير من أعماله ومهامه اليومية،

إذن ما الحل؟

الحل هو إخماد هذا السيل الجارف من الأفكار بطرق يصفها العلم اليوم لنا أنها أصبحت من الضروريات الملحة لإعادة التوازن والتركيز لحياتنا، ولعل من أهم ما يمكن عرضه هنا للمساعدة بهذا الخصوص ممارسة رياضة التأمل، والخلوة مع النفس والهدوء والسكينة، والتنفس العميق، ولو لأوقات قليلة يوميًا،يساعد بشكل جيد على إطفاء وطرد هذة الأفكار بشكل منهجي، وعندما شرعت بكتابة هذه السطور ورد على ذهني قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في الحديث الذي يرويه الإمامان البخاري ومسلم (عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم. فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه، وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك)

أخرجه البخاري في صحيحه (رقم3)، ومسلم في صحيحه (رقم160).

وتعجبت من هذا الأمر الذي أمر الله عز وجل به الأنبياء والمرسلين، لابد أن له سحرًا وتأثرًا عجيبًا في أداء مهامهم الموكلة إليهم، وأي مهام؟ حيث تبدأ مع ممارسة هذه العادة وغيرها من عادات التأمل والسكينة حركة الأفكار بالبطء، وتخف سرعتها وينخفض صوتها وضجيجها من أدمغتنا، كما وتمنح الشخص سلامًا داخليًا عالي القيمة والتأثير على حياته اليومية، ومن ثم يبدأ في الدخول في دائرة الاستنارة،التي تخوله أداء رسالته على أكمل وجه بإذن الله، وبما أن ظروفنا اليوم تغيرت بشكل جذري، فيمكن أن يمارس الشخص عددًا من العادات أيضًا التي سوف تساعده دون شك على خفض وتيرة هذه الأفكار إلى أقصى حد ممكن ومنها:

قيام الليل

جلوس التشريق وهي: الجلوس من بعد صلاة الفجر لحين شروق الشمس

ممارسة رياضة اليوقا (رياضة هندية قديمة)

ممارسة رياضة تاي تشي (هي إحدى الرياضات الروحية التي تطورت عن الفنون القتالية القديمة في آسيا).

وغيرها من الممارسات التي تناسب ظروف وطبيعة كل شخص.

معلومة:

المخ البشري تمر عليه يوميًا آلاف الأفكار ..

لذلك من الصعب سماع صوت القلب ..

وأحد الحلول ممارسة التأمل

خاطرة:

في عمق الصمت تجد جميع الأجوبة هناك.

الحكيم الصيني أوشو

إقرا المزيد حول الموضوع

https://www.facebook.com/note.php?note_id=190366137641280

المراجع:

❊

- ترجمة كتاب قوة الآن "The Power Of Now" "ايكهارت تول"

- ترجمة كتاب صوت السكينة silence speaks ايكهارت تول"

﴿عقل الإنسان يتعرض يوميًا ما بين خمسين إلى ستين ألف فكرة، تزداد مع بعض الأشخاص لتصل مايقارب مئة ألف فكرة، وتقل عن البعض لتصل إلى أقل من ذلك بكثير﴾

رياح الوداع

شعر

الدكتور/ حسن كمال محمد محمد

وَدَّعْتُ طِيبَ الْعَيْشِ حِينَ أُوَدِّعُكْ ... جِسْمِي مَعِي وَيَظَلُّ قَلْبِي يَتْبَعُكْ

هَبَّتْ رِيَاحٌ لِلْوَدَاعِ وَلا تَنِي ... فِي شِقْوَتِي وَيُقَضُّ مِنْهَا مَضْجَعُكْ

وَتَجَمَّدَتْ أَوْصَالُنَا مِنْ فُرْقَةٍ ... أَيَغِيبُ عُرْسٌ لِلْغَرَامِ يُمَتِّعُكْ؟

فَهَوَ الْمُنَى أَقْتَاتُهُ مُتَبَتِّلاً ... نِعْمَ الْهَوَى مَا يَحْلُو فِيهِ تَضَرُّعُكْ

أَنَّى اتَّجَهْتِ فَنَاظِرٌ وَمُوَكَّلٌ ... بِسَبِيلِ لُقْيَاكِ وَعَوْدٍ يَدْفَعُكْ

وَصَدَى حَدِيثِكِ مَاثِلٌ لَكِنَّنِي ... مُتَشَوِّقٌ مِنْ بَعْدِ نَأْيٍ أَسْمَعُكْ

وَتَرِينَ فِي شَتَّى الْبِقَاعِ مُرَدِّدًا ... فِي لَهْفَةٍ: وَاللهِ إِنِّي مُوجَعُكْ

وَقْعُ الْفِرَاقِ مُرَدَّدٌ فِي مَسْمَعِي ... أَتُرَاهُ يُقْرَعُ فِي شَكَاةِ مَسْمَعُكْ؟

مَوَّارَةٌ لَفَحَاتُهُ وَارٍ وَجِيـــ ... ـعُ عَذَابِهِ فَلْتَحْذَرِي مَا يَصْرَعُكْ

وَأَنِينُ بُعْدٍ مُعْوِلٌ لا يَنْقَضِي: ... أَيَجِيءُ يَوْمًا مَرْجِعِي أَوْ مَرْجِعُكْ؟

يَا لِي مِنَ النَّظَرَاتِ آخِرَ مُلْتَقَى ... يَتَرَاءَى فِيهَا مَصْرَعِي أَوْ مَصْرَعُكْ

وَتَوَارَتِ الأَلْفَاظُ خَجْلَى فِي فَمِي ... وَالنَّارُ مِنْ أَلَمِ التَّنَائِي تَلْسَعُكْ

وَتَلَعْثَمَتْ كَلِمَاتُنَا فَكَأَنَّهَا ... شَوْكُ الْقَتَادِ يُمِيتُنِي وَيُرَوِّعُكْ

فَيَغِيبُ مَا أَلْقَاهُ يَعْقِدُ مَأْتَمًا ... لِلْحُبِّ لَمَّا قِيلَ: إِنِّي مُوَدِّعُكْ

وَحَيَاتُنَا تَجْرِي بِعَكْسِ عَقَارِبِ السَّـ ... ـاعَاتِ حَتَّى إِنَّهَا قَدْ تَصْرَعُكْ

وَتَرَدَّدَتْ أَصْدَاءُ حِرْمَانٍ هُنَا ... وَهُنَاكَ شَجْوٌ مُعْلِنٌ: سَأُرَجِّعُكْ

وَالنَّفْسُ قَدْ ذَهَبَتْ شَعَاعًا حَسْرَةً ... إِذْ غَابَ عَنْهَا مُذْ زَمَانٍ مَطْلَعُكْ

كَمْ تَاقَتِ الدُّنْيَا لِشَهْدِ وِصَالِنَا ... فَالْحُبُّ مَهْمَا قِيلَ عَنْهُ مَنْبَعُكْ

الهوية اللغوية: المفهوم والملامح

د . وليد السراقبي

كلية الآداب الثانية – حماة – سوريا

﴿ ولغتنا العربية الفصيحة إلى جانب كونها أداة تفكير ووسيلة تعبير، وأداة تواصل هي جامعة شملنا، وأساس قوميتنا، والرابطة التي تجمع بين أبناء أمتنا ..... وذاكرة الأمة ومستودع تراثها، وجسرها للعبور من الماضي إلى الحاضر، أو من الحاضر إلى المستقبل، وهي قلعتنا الحصينة للذود عن هوّيتنا وذاتيتنا الثقافية، ووحدتنا القومية ﴾

يقصد بالهوية التعبير «عن الوجود الإنساني لفريق من الناس في أرض معينة، وهذا التعبير يحمل السمات التفصيلية لهذه الـ(هو) الفردية والجماعية في ائتلافها واختلافها، ولكنها في النتيجة تصدر عن تراث واحد ينتمي إليها في شتى شؤون الحياة»[1] ومفهوم الهويّة وثيق الصلة دائمًا بأصل الشخص وجذوره، وبالوشائج التي تربطه بالآخرين.

فكل من علم اللغة الاجتماعي، وعلم اللغة النفسي، وعلم الإنسان الاجتماعي واللغوي يشير إلى مركزية الارتباط الحاصل بين اللغة والهوية[2]. فقد غدت بصمة الصوت جزءًا أساسيًا في الكشف عن الجرائم، ما يدفع إلى تأكيد أنه لا شيء أشد مماثلة لمشاعرنا من إيقاعات أصواتنا... وأن العقل متأصل في المحتوى القضوي للغة مع دخول العاطفة في الصوت حتى النخاع[3].

واللغة الأم هويّة حاملها من جهة، وهويّة المجتمع الصغير والكبير الذي ينتسب إليه، وأهم مميزاته الثقافية المنبئة عن هويتها .. وتتكون هويته الشخصية والاجتماعية والثقافية من خلال الانتماء والارتباط بالآخرين عبر سيرورة دينامية مستمرة، وأداتها في ذلك مختلف العناصر الثقافية و الحضارية، معارفَ ومعتقدات وأخلاقًا وأعرافًا وعادات، التي يكتسبها الطفل من خلال التنشئة الاجتماعية التي تؤدي دور الناقل في الوقت نفسه، فهي معين ثقافته وأداة تفكيره[4]. فاللغة تحتم على ناطقيها رؤية معينة للواقع، وتصورًا له، وطريقة تنظيم الثقافة الناطقة بتلك اللغة، حتى أطلق على هذه الرؤية مصطلح (الحتمية اللغوية).

تتأتى أهمية اللغة من جوانب عدة منها:

1 – أن اللغة أداة تعبير وإفصاح، ووسيلة تفكير، ومصدر أنس اجتماعي إنساني بين الناطقين بها، ولا غرابة في ذلك، فهم يولدون حاملين نظامًا لغويًا يتهدّون بقواعده، ويستوعبون معطيات المجتمع الذي فتحوا أعينهم بين ظهرانيه. وقديمًا نظر سقراط إلى أحد تلاميذه الصامتين وخاطبه بقوله: تكلّم حدّثني حتى أراك. فهذه المقولة تدلّ على أن اللغة هي مقوّم الوجود الحقيقة للإنسان، فليس له وجود بغير اللغة، وهي عبارة تحمل في طيّاتها الإشارة إلى أهمية اللغة في التواصل الإنساني، وإلى الوجود الاجتماعي أيضًا.

2 – أن اللغة أهم مقوّم من مقوّمات التراكم الحضاري والمعرفي لأي مجتمع إنساني. إنها خزان أشكال ثقافية من التمثل. وهذه القيمة الأخيرة هي وحدها القيمة التي تمتلك سندًا شرعيًا. وهذا مرجعه إلى أن اللغة المحلية تحمل الهوية الأصيلة لمتحدثيها.

3 – أنّ اللغة هي السياجُ الأهمُّ الذي يوحّد الأمّة الناطقة بها، ويعمل على حماية المجتمع من عوامل الانحلال والذّوبان، لأنها (مستودع لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتقاليد والفلسفة والدين ... إن روح الشعب يكمن في لغته الآباء والأجداد [5].

ولغتنا العربية الفصيحة إلى جانب كونها أداة تفكير ووسيلة تعبير، وأداة تواصل هي «جامعة شملنا، وأساس قوميتنا، والرابطة التي تجمع بين أبناء أمتنا ..... وذاكرة الأمة ومستودع تراثها، وجسرها للعبور من الماضي إلى الحاضر، أو من الحاضر إلى المستقبل، وهي قلعتنا الحصينة للذود عن هوّيتنا وذاتيتنا الثقافية، ووحدتنا القومية .... أسهمت في مسيرة الحضارة البشرية أيّما إسهام، فكانت لغة العلم والثقافة ..... وإنّ إهمالنا لها اجتثاث لشخصيتها من مسارها التاريخي، ومن ثقافة مجتمعنا، فتغدو هذه الشخصية دون هويّة، ويضيع طابعها، وتُمحى ملامحها ..»[6] .

وللغتنا العربية من المقوّمات والخصائص ما لا نجده عند غيرها من اللغات التي نحترمها جميعًا. ولعلّ من أهم هذه المزايا:

1 – البعد الديني للعربية، فهي لغة القرآن الكريم الذي حملها عبر أربعة عشر قرنًا من الزمان، ووقف بها سدًّا منيعًا أمام كل الحملات الشعوبية التي عصفت بمنطقتنا العربية بدءًا من التعجيم فالتتريك فالفرنسة.

2 – الوضوح والسهولة.

3 – الحيوية والمرونة والتطوّر والطواعيّة.

4 – غنى في الألفاظ والتراكيب.

5 – التنظيم: فهي لغة جامعة مانعة، غانية بنفسها، لا تحتاج إلى قواعد من اللغات الأخرى أو ترفض أي عنصر استفنت عنه عبر تاريخها الطويل، فمنذ أن فُرِّع الكلام إلى أقسامه الأساسية لم يضف إلى التقسيمات شيء جديد لم يكن في اللغة نفسها (إنها ذات نظام كلي ذي أنظمة متفرعة عنه، فهناك نظام صوتي وآخر مقطعي، وآخر تنغيمي، ونظام صرفي ونحوي ....)

7 – الإيجاز والاقتصاد: ومن مظاهره تعدد المعاني لمبنى صرفي واحد فصيغة مثل صيغة (استفعل) في العربية يكون لها دلالات متعددة بتعدد السياقات الواردة فيها، فهي تدل على الصيرورة في قولنا: استحجر الطين، أي صار حجرًا، وتدل على الاعتقاد في قولنا: استصغر الرجل المصيبة، أي وجدها وظنها صغيرة، وتدل على الطلب في قولنا: استعلم .... ومن مظاهره أيضًا تعدد المعنى السياقي للفظ الواحد فالفعل (ضرب) يكون متعدد المعاني بتعدد السياقات، فمعناه في قولنا: ضربت مثلاً غير معناه في قولنا: ضربت الولد، وغيّر معناه في قولنا: ضرب النقود، و غير معناه في قولنا: ضرب في الأرض، وغير معناه في قولنا ضرب قبّة.....

فكم هي المصطلحات التي جدت بفعل التطور العلمي والمجتمعي، فقابل ذلك مصطلحات كثيرة جديدة بسبب طواعية البناية الصرفية لمفردات اللغة العربية، فقيل: التصحرُ، والتأقلُم، والعَوْلمة، والعَوْربة، والحَوْسبة، واللبننة،...

لقد أبان المستشرق الأمريكي وليم ورل[7] ، مدير مدرسة المباحث الشرقية عما تمتاز به العربية من لين ومرونة وقدرة على النماء والتطوّر والتكيّف وفق متطلبات العصر فقال «إنّ للغة العربية من اللين و المرونة ما يمكنانها من التكيّف وفق مقتضيات العصر، وهي لم تتقهقر فيما مضى أمام أي لغة أخرى من اللغات التي احتلّت بها، وهي ستحافظ على كيانها في المستقبل كما حافظت عليه في الماضي».

وأقرَّ المستشرق الأمريكي أيضًا رتشارد كوتهيل[8] بالهوّة بين بعض الغربيين و بين تقدير اللغة العربية حق التقدير فيقول: «قلّ منا نحن الغربيين من يقدّر اللغة العربية حقّ قدرها من حيث أهميتها وغناها ، فهي بفضل تاريخ الأقوام التي نطقت بها وبداعي انتشارها في أقاليم كثيرة، واحتكاكها بمدنيات مختلفة، قد نمت إلى أنّ أصبحت لغة مدنية بأسرها بعد أن كانت لغة قبليّة. لقد كان للعربية ماضٍ مجيد، وفي تقديري سيكون لها مستقبل باهر»[9] .

وبيَّن برنارد لويس المستشرق الأمريكي مكانة اللغة العربية وعلاقتها بالفكر، فأثنى عليها من جانب، وخانته الموضوعية فغمز من قناة لغتنا من جانب آخر، فقال: «لكن اللغة العربية ناقل فكر دقيق، صحيح أنها غنية بالشر[10] والفصاحة والآداب، ويمكن لمن يمارسونها ألا يقولوا ما يقصدونه بالضبط، أو يقصدون بالضبط ما يقولونه، لكن ذلك لا يعد واحدًا فقط من مظاهر العربية فهي أيضًا لغة تتصف بوضوح ودقة عاليين، وهي أداة تواصل علمية وفلسفية، وكانت اللغة اليونانية النظير الوحيد لها حتى العصور الحديثة»[11] .

﴿ اللغة أهم مقوّم من مقوّمات التراكم الحضاري والمعرفي لأي مجتمع إنساني. إنها خزان أشكال ثقافية من التمثل. وهذه القيمة الأخيرة هي وحدها القيمة التي تمتلك سندًا شرعيًا. وهذا مرجعه إلى أن اللغة المحلية تحمل الهوية الأصيلة لمتحدثيها ﴾

﴿ اللغة هي السياجُ الأهمُّ الذي يوحّد الأمّة الناطقة بها، ويعمل على حماية المجتمع من عوامل الانحلال والذّوبان، لأنها (مستودع لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتقاليد والفلسفة والدين ... إن روح الشعب يكمن في لغته الآباء والأجداد ﴾

الهوامش

1 – سالم معوش، أزمة الهوية والوجود، بحوث الدائرة المستديرة، ليبيا، 2008، ص11.

2 –جوزيف، جون: اللغة والهوية، عالم المعرفة، الكويت، العدد 242 ، لسنة 2007، ص31و32.

3 –المرجع السابق، ص43.

4 – السيد، د. محمود: لغتنا الأم العربية الفصيحة، مجلة مجمع اللغة العربية، مجلد 84 ، ج1 ، ص 13 .

5 – اللغة بين القوميّة والعالميّة: د. إبراهيم أنيس، القاهرة، 1970، ص100.

6 – السيّد، د. محمود: لغتنا الأم العربية الفصيحة ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد 84/ 13/1 – 14 .

7 – فتاوى كبار الكتاب والأدباء، الكتاب الشهري، 4، وزارة الثقافة ، دمشق، ط2، 2003م، ص15.

8 –المرجع السابق نفسه، ص8.

9 – المرجع السابق نفسه، ص8.

10 – لعله يقصد ما في اللغة العربية من استخدام أساليب التعمية والتورية والكناية ، وما إلى ذلك.

11 – لويس، برنارد: الإسلام والغرب، ترجمة د. فؤاد عبد المطلب، ط. اتحاد الكتاب العرب، دمشق،2007م،ص 106.

البحث العلمي في الوطن العربي (رؤية تشخيصية)

بقلم: د. فريد أمعضشو

باحث مغربي

من الأمور المسلَّم بها أن الدول المتقدمة في العالم بأسره قد حققته من ازدهار وتفوق، في شتى مجالات الحياة، بفضل اهتمامها بالبحث العلمي، وحرصها على ربطه بالواقع وبالإنسان، فضلاً عن تحلي مواطنيها بقيم الانضباط والإخلاص والتضحية والعمل الدؤوب وغيرها. وتزداد أهمية هذا البحث يومًا بعد آخر، ولاسيما في سياق التدافع والتنافس الحضاريين اللذين يشهدهما عالم اليوم بوتيرة أقوى، وسَعْي الدول الكبرى إلى التسيُّد والتحكم في المَعمورة عبر توظيفها سلاحَ العلم لإنتاج تقنيات وأساليب حياة مغايرة ومتطورة. ولذلك، لا نعْجبُ حين ندرك حجمَ المُخَصَّصات المالية التي ترصدها للبحث والتطوير، وعِظَمَ البنيات التي توفرها لممارسة هذا النشاط الفكري العلمي، في جامعاتها ومعاهدها ومراكزها البَحْثيّة، والاعتبارَ الخاصَّ الذي توليه للمُشتغِلين بحقول المعرفة كافة دون استثناء.

إن البحث العلمي عمومًا يعدّ «مطلبًا مُلِحًا، وضرورة قصوى لأي مجتمع في وقتنا الحاضر بما له من دور في التقدم والحضارة، ذلك أن تحقيق التقدم في أي مجتمع مرهون بالاستخدام الأمْثل للموارد البشرية والمادية المُتاحة بالاعتماد على الدراسات العلمية التي تُتْقِن الموارِدُ البشرية إعدادَها بمنهجية علمية ودقيقة، تهدف إلى تأطير كافة المعارف والخِبْرات ذات العلاقة، بصورة شاملة وواضحة تقود إلى اتخاذ القرارات الرّشيدة»[1].

وحين يَعْمد الدارسُ إلى مقارنة واقع البحث العلمي في العالم المتقدِّم بنظيره في الدول المتخلفة يسجل، بسهولة، عُمقَ الهُوة بين هذين المجالين الحضاريين؛ إذ إن هذا البحث في العالم الثالث – وضمنه الدول العربية – متواضعٌ، ولا يرقى إلى مستوى تحقيق انتظارات أناسه والاستجابة لمُتطلَّباتهم، وتقديم الحلول الناجعة لأكثر مشاكله وأزماته. وليس مؤهَّلاً، في الغالب، لإفراز جيل من العلماء يمكّنه الاشتغال من داخل العالم المتخلف لإنتاج أفكار ونظريات وتِقانة متطورة، تضْمَن له التأثير والإسهام الفاعل في رسْم صورة العالم، وتحديد مساره، واتخاذ القرارات الحاسمة في كل الميادين.

إن الأمة العربية والإسلامية – وهي أمّة (اقرأ) – لا تنقصها الكفاءات والطاقات في العلوم كلها، بل يشْهد الواقع بخلاف ذلك؛ فهي تزخر بقاعدة عريضة من الشباب الطَّمُوح المتحمِّس الغيور المُبادِر المثقف ثقافةً واسعة، ولكنه – للأسف – يصطدم بواقع غير مشجِّع ولا مُساعِد على احتضانهم وتعهُّدهم ورعايتهم، وتنمية مواهبهم، واستثمار قدراتهم وإمكاناتهم بما فيه صالحُ بلدانهم وأمتهم .. إذ لا يجد أمامه مختبَرات علمية مجهّزة، ولا أدوات عمل كافية، ولا التشجيع المعنوي... الأمرُ الذي يدفع بكثيرين منهم إلى التفكير في مغادرة أوطانهم، والتوجُّه نحو البلدان المتقدمة (مثل كندا والولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا وفرنسا) التي ترحّب بهم، وتوفر لهم كلّ ما يحتاجونه لممارسة بحثهم العلمي... وبذلك، تخْسر بلدانهم الأصلية هذه الطاقات النيِّرة بعدما أنفقت أموالاً باهظة لتعليمها وإعدادها، وتحْرم نفسَها من الاستفادة منها، ويجدها العالم المتقدم – في المقابل – هدية مجّانية جاهزة لا يتوانى في احتضانها وإغرائها بكل ضروب الإغراء. ولمّا تُهَيَّأ لهذه الكوادر والأدْمغة المُهاجِرة ظروف الاشتغال والبحث المناسبة، فإنها سَرْعان ما تعطي الثمار الوفيرة التي تستغلّها دول الاستقبال بالدرجة الأولى؛ فتحصد لها الجوائز العالمية الرفيعة، وتبدع وتقدّم التجارب الجديدة والنظريات والتقنيات المتطورة بأسمائها أو أسماء الفرق البحثية التي تنضوي تحت لوائها مقرونةً باسم البلد المُحْتضِن. وينعكس ذلك مباشرةً على تلميع صورة البلدان المُستقبِلة في المحافل الدَّوْلية، وتبويئها المراتبَ الأولى في التصنيفات العالمية على مستوى البحث والتطوير والتجديد العلمي. هذا في الوقت الذي تظل بلدانها الأصلية قابعة في مؤخِّرة تلك التصنيفات، ومتخبِّطةً في أوحال الاجترار والجمود وغياب الجودة والنجاعة فيما تعْرفه من أعمال بحثية في المجالات كلها، وخارجَ نطاق تصنيف أفضل الجامعات على الصعيد الدولي، الذي يصْدر، بصفة دورية، عن منظمة اليونيسكو.

لعل ما يمكن أنْ نصف به واقع البحث العلمي في العالم العربي، عمومًا، أنه مُؤسِف حقًّا، وأنه مُخيِّب للآمال، وأنه يفتقد إلى النجاعة والقوة المطلوبتين ليكون في مستوى مواجهة التحدّيات، وكسْب الرِّهانات. فهو لا يشكل أولوية لدى العرب اليوم، بل يُنْظَر إليه بوصفه أمرًا ثانويًّا، ولا تُخصَّص له الاعتمادات المالية الكافية، ولا توفَّر للمشتغلين به بنيات البحث الضرورية، ولا تُستغَلّ نتائجه، وإنْ قلّت، استغلالاً مُعَقْلَنًا فعّالاً... ولا يجب إنكار التطور الطفيف الذي عَرَفه هذا البحث على امتداد العقود الماضية في المنطقة العربية؛ بحيث تكشف الإحصاءات

الأدْمغة المُهاجِرة تهيأ لها ظروف الاشتغال والبحث

والتقارير المُنْجَزة حول البحث العلمي العربي أن مردود هذا الأخير ازداد نسبيًّا ما بين 1967 و1995 وما بعدها، وبلغ إجمالي إنتاج هذا البحث حوالي ستة آلاف بحث عامَ 1995 في أكثر من 175 جامعة عربية[2]. ولكنّ ذلك، يظل ضعيفًا جدًّا إذا ما قُورن بما لدى الغرب في أوروبا وأمريكا، وفي بلدان متقدمة أخرى؛ كاليابان.

ويعدّ مؤشر عدد المشتغلين بحقل البحث العلمي، بالنسبة إلى عدد السكان، من المعايير الأساسية المعتمَدَة دَوْليًّا في تصنيف الدول في سلم البحث العلمي. فإذا كانت أعداد هؤلاء الباحثين والعلماء في الدول المتقدمة كبيرة (بلغت 9533 عاملاً في البحث العلمي، بالنسبة إلى كل مليون نسمة، في أمريكا الشمالية، و2206 في أوروبا؛ حسب إحصاء صدَرَ عام 1990)، إلا أنها ضعيفة جدًا في البلدان العالَمْثالِثيّة عامة، ومن بينها البلدان العربية؛ إذ بلغ عدد المشتغلين بالبحث العلمي، عربيًّا، حسب تقارير أممية، حوالي 363 عامل لكل مليون نسمة عام 1990، بعدما كان الرقم لا يتعدى 124 عامل عام 1970. وهو ما يشكل نسبة 1.47 % من إجمالي عدد العلماء والمهندسين المشتغلين بالبحث العلمي على مستوى العالَم كله[3]. وأشارت إحْصاءاتٌ سابقة إلى أن مجموع الباحثين في الوطن العربي يقل عن 16 ألف باحث، وفي إحصاءات أخرى صدرت عن جامعة الدول العربية، عام 2006، أنه يقابل كل مليون عربي 318 عامل في مضمار البحث العلمي!

إن أبرز سبب يُفسِّر به هذا الضعف المَهول في أعداد الباحثين على الصعيد العربي هو نقص الإنفاق عليهم وعلى البحث العلمي عمومًا. ذلك بأن ما ترصده الدول العربية من مخصَّصات مالية لهذا البحث لا يصل إلى النسبة المتوسِّطة المتعارَف عليها دوليًّا في هذا النطاق، والتي تحدِّد ما إذا كان إنفاق أي بلد على البحث العلمي مُجْديًا أو غير مُجْد، وقد حُدِّدت هذه النسبة في 1 % من الناتج الإجمالي[4]. بمعنى أن الإنفاق على هذا البحث، في أي بلد، يكون مجديًا إذا بلغ هذه النسبة كحدّ أدنى، وإذا لم يصلها فإن إنفاقه، في هذا الصدد، يعد غير ذي جدوى. ولم تستطع أي دولة عربية بلوغ نصف هذه النسبة لسنوات طويلة، وربما كانت تونس استثناءً سنة 2007؛ حيث تجاوز إنفاقها على أنشطة البحث العلمي والتطوير عامَئِذ عتبة 1% من ناتجها المحلي الإجمالي. وتُجْمِع التقارير والإحصاءات على أن ما ينفقه العالم العربي على أنشطة البحث العلمي يظل دون المستوى المطلوب، ولا يبشّر بمُخْرَجات قوية ذات تنافسية، ولا يؤهّل للَعِب أدوار ريادية، ولا لأنْ يكون طرفًا فاعلاً في اتخاذ القرار العلمي الحاسم عالميًّا! فقد كشفتْ إحصاءات اليونيسكو عام 2004 أن الإنفاق العربي على البحث العلمي لم يتجاوزْ 1.7 مليار دولار، بما نسبته 0.3% من الناتج القومي. وأشار تقرير اليونيسكو عن العلوم عام 2010 إلى أن الدول العربية هي الأقلّ إنفاقًا على البحث العلمي والتطوير في العالم. وحين نحاول مقارنة هذه النسبة بتلك المتحقِّقة في الدول المتقدمة يتبيّن، بالملموس، أنْ لا مجالَ لإجراء مثل هذه المقارنة إطلاقًا! ففي المتوسط، «ينفق العالم حوالي 2.1% من إجمالي دخْله الوطني على مجالات البحث العلمي؛ أي ما يساوي 536 بليون دولار، ويعمل في مؤسسات البحث العلمي في العالم ما يقارب 3.49 مليون باحث؛ أي بمعدل 1.3 باحث لكل ألف من القُوى العاملة. وقد قُدِّر إنفاق الولايات المتحدة الأمريكية واليابان والاتحاد الأوربي بما يقارب 417 بليون دولار، وهو ما يتجاوز ثلاثة أرباع إجمالي الإنفاق العالمي بأسْره على البحث العلمي، وتنفق الولايات المتحدة سنويًّا على البحث العلمي أكثر من 168 بليون دولار؛ أي حوالي 32% من إجمالي ما ينفقه العالم كلُّه. وتليها اليابان، التي تنفق حوالي 130 بليون دولار على ذلك البحث، ثم ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وكندا. أما الدول العربية فقد أنفقت مجتمعةً، في السنوات الأخيرة، حوالي 535 مليون دولار فقط (الإمارات العربية المتحدة: 0.6% – الأردنّ: 0.3% – مصر: 0.2% – سوريا: 0.2%...)[5]» . وإذا رجعْنا بضعة عقود قليلة إلى الوراء، نجد أن الولايات المتحدة قد أنفقت، خلال الثمانينيات، أزيد من 40 بليون دولار على البحث العلمي، على حين لم يتعدَّ الإنفاق العربي على هذا الأخير سقف المئَتَيْ مليون دولار. ولم يتجاوز هذا الإنفاقُ، حسب معطيات حديثة نسبيًّا، أربعة دولارات للفرد سنويًّا، على حين وصل في اليابان – مثلاً – إلى 190 دولارًا، وفي ألمانيا إلى 230. وينمّ حجم الميزانية التي تخصصها الجامعات العربية لأنشطة البحث والتطوير والتجديد عن ضعفها وهزالتها؛ فهي ترصد لهذه الأنشطة ما لا يتجاوز، في أحسن الأحوال، عتبة 1% أو أكثر من ذلك بقليل، هذا في الوقت الذي تخصص جامعات الولايات المتحدة لها ما يفوق الـ 40% من ميزانيتها العامة، وقِسْ على ذلك جامعات عالمية أخرى كثيرة في بريطانيا وألمانيا

﴿ يعدّ مؤشر عدد المشتغلين بحقل البحث العلمي، بالنسبة إلى عدد السكان، من المعايير الأساسية المعتمَدَة دَوْليًّا في تصنيف الدول في سلم البحث العلمي ﴾

﴿من الناحية الكيفية، نجد أن أبحاث علماء الدول المتقدمة ودارسيها تمتاز بكثير من الجدّة والإبداع والأصالة، وتربط النظَري بالتطبيقي والعَمَلي، وتسعى إلى تقديم إجابات، قابلة للأجْرأة والتنفيذ، لكثير من إشكالات الواقع والمقاولاتِ وغيرها. ولهذا، نجد تلك الدول تستحوذ على 99% من براءات الاختراع عالميًّا، وتتحكم في 95% من التكنولوجيا العالمية المتطورة﴾

﴿نسبة مهمة من الأبحاث الجامعية، أو التي ينجزها جامعيون، في العالم العربي، يكون الهدف منها، أساسًا، هو الحصول على ترقية أو تثبيت في منصب؛ فتكون قيمتها متأثرة وخاضعة لهذا المطلب﴾

وإسرائيل وغيرها. وقبل الانتقال إلى تناول نقط أخرى في هذا المقال، فلْنَقِفْ وقفة سريعة عند واقع البحث العلمي في هذا الكيان الأخير. فقد بلغ حجم ما أنفقته إسرائيل على التعليم، سنة 1999، أزيد من 6.5% من ناتجها الإجمالي، متفوِّقةً في ذلك على الولايات المتحدة نفسها التي خصصت للتعليم، في السنة عينِها، حوالي 5.3% من إنفاقها. وبلغت نسبة العلماء والمهندسين والتقنيين في إسرائيل 76 لكل 10 آلاف نسمة، سنة 2000، ويُعْزى اهتمام الكيان الإسرائيلي بهذه الفئة المتنوِّرة من المجتمع إلى إيمانه بقيمة العلم والعلماء في صنع التقدم والتنمية، وضمان التفوق والهيمنة؛ ولهذا، بادر إلى توفير ما تحتاجه من بنيات بحْثيّة، وظروف عمل مواتية؛ فأنشأ سنة 1949 معهد الجيولوجيا، وسنةَ 1950 المعمل الوطني للفيزياء، وعدداً مهمّا من المعاهد والمراكز العلمية في مجالات الإلكترونيك والتقنيات الدقيقة والتكنولوجيا المتقدمة وتطوير السلاح وغيرها. وقد بلغت ميزانية معهد وايزمان للعلوم (Weizmann Institute of Science) السنوية وحْدَه 1.2 مليار دولار، في الوقت الذي لم تتجاوز ميزانيات جميع الجامعات والمعاهد العليا المنتشرة على صعيد العالم العربي كله 800 مليون دولار! وإذا كانت الدولُ العربية رُمَّتُها لم يتجاوز إنفاقها على البحث العلمي، كما قلنا، نسبة 0.5% من ناتجها القومي، فإن إسرائيل أنفقت على المجال نفسه حوالي 2.7%، مُقتربةً بذلك من نسبة إنفاق الولايات المتحدة على هذا البحث (2.9%)، وكذا اليابان (3%)[6].

إن لتباين حجم الإنفاق على أنشطة البحث العلمي والتطوير، بين العالَمَيْن المتقدم والمتخلف، انعكاسات مباشرةٌ على واقع هذا البحث داخلهما، كمّا وكيفاً.

فإنتاجية الباحث في الدول المتقدمة مرتفعة؛ إذ تقدَّر بمعدل 1.5 بحث للباحث في المتوسط، مقابلَ 0.2 بحث للباحث سنويًّا في العالم العربي (10% من المتوقَّع فقط). ونُشرت في الأعوام الأخيرة أزيد من 305 مليون ورقة بحث علمية في جميع أنحاء المعمورة – أقصد تلك المنشورة في مجلات علمية عالمية محكّمة ومصنفة يَجْري الاقتباس منها كثيرًا – كان نصيب الباحثين العرب منها أقلّ من 1%، على حين استحوذ الباحثون الأمريكان على 34% من المنشور فيها. وكشفت دراسة أخرى أن مجموع البحوث العلمية التي تُجْريها جامعة هارفارد (Harvard) وَحْدَها يساوي مجموع البحوث المُجْراة على صعيد جامعات العالم العربي ومعاهده ومراكزه البحثية برمتها!

ومن الناحية الكيفية، نجد أن أبحاث علماء الدول المتقدمة ودارسيها تمتاز بكثير من الجِدّة والإبداع والأصالة، وتربط النظري بالتطبيقي والعَمَلي، وتسعى إلى تقديم إجابات، قابلة للأجْرأة والتنفيذ، لكثير من إشكالات الواقع والمقاولات وغيرها. ولهذا، نجد تلك الدول تستحوذ على 99% من براءات الاختراع عالميًّا، وتتحكم في 95% من التكنولوجيا العالمية المتطورة؛ مما يؤهّلها

لحَصْد الجوائز الرفيعة دوليًّا (نوبل للعلوم تحديدًا). وليس بمقدور باحِثي الوطن العربي وعلمائه فرض الذات والتنافس في مثل هذا الجوّ العلمي بكل موضوعية وتجرُّد؛ إذ إنهم سجّلوا 24 اختراعًا فحسْبُ عام 1997؛ أي بما معدّلُه اختراع واحد لكل عشرة ملايين نسمة، على حين نلفي الكيان الإسرائيلي قد سجّل، في السنة نفسها، 577 اختراع[7]! ويرتفع كمُّ هذه الاختراعات في دول أخرى؛ من مثل ألمانيا الاتحادية التي بلغت نفقاتها على البحث والتطوير، عام 1995، مثلا، حوالي 2.3% من ناتجها المحلي الإجمالي، ويبلغ الآن عدد المشتغلين بهذا المجال فيها مئات الآلاف، الذين توفَّرُ لهم أمْثل شروط العمل، وشتى صنوف الدعم المادي والمعنوي... ولهذا لا نستغرب حصول العلماء الألمان على عشرات من جوائز نوبل في الفيزياء والكيمياء وتخصصات علمية ومعرفية أخرى عدة، على حين لم يحصلْ علماءُ العرب على أيّ جائزة نوبل في العلوم الدقيقة، اللهمّ إذا استثنينا تلك التي حازها المصريّ أحمد زويل، ذو الجنسية الأمريكية، عام 1999، في الكيمياء، ولكنْ من داخل معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا في الولايات المتحدة الأمريكية. طبعًا ينضاف إليها، في مجال الأدب، تلك التي نالها مواطنه نجيب محفوظ (ت 2006م) سنة 1988.

وفي الوقت الذي تنصبّ حوالي 99% من بحوث الطلاب والباحثين اليابانيين، على مستويي الماجستير والدكتوراه، على تناول مشكلات حقيقية تعاني منها الوَحْدات الإنتاجية والمقاولات والشركات الصناعية، نجد أن القسم الأكبر من أبحاث طلاب الجامعات العربية يتجه إلى تناول موضوعات يغلب عليها المَيْسَم النظَري، بعيدًا عن ملامسة هموم المجتمع، وبَحْث حلول لأزماته ومشكلاته في الاقتصاد والاجتماع والعلوم البحتة وغيرها، ثم إن جملةً منها يفتقد إلى الجدة والإبداع؛ فتأتي، غالبًا، مجترّة لاجتهادات سابقة، دون أنْ تستطيع تقديم إضافات نوعية إلى صَرْح البحث العلمي... وهو وضْعٌ تقف وراءه، بلا شك، عوامل كثيرة؛ منها ما يتعلق بشخص الباحث نفسه، ومنها ما يتجاوزه... ولا ننسى أنّ نسبة مهمة من الأبحاث الجامعية، أو التي ينجزها جامعيون، في العالم العربي، يكون الهدف منها، أساسًا، هو الحصول على ترقية أو تثبيت في منصب؛ فتكون قيمتها متأثرة وخاضعة لهذا المطلب. هذا في الوقت الذي تقل الحوافز وأشكال الدعم لهم، سواء من قِبَل المؤسسات التي ينتمون إليها أو من قبل غيرها؛ ولهذا نجد، أحيانًا، بعض أولئك الباحثين لا يملك في رصيده العلمي سوى ما أعَدَّهُ – مُجْبَرًا – من رسائل وأبحاث جامعية، وبضع مقالات منشورة، هنا وهناك، في منابر صحافية غير محكّمة وغير مصنفة عالميًّا، في أحسن الحالات!

وبالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه، ثمة صعوبات وأسباب أخرى تعيق البحث العلمي في الوطن العربي، وتجعله دونَ مستوى آمال أناسه وتطلعاتهم، وغيرَ مؤهَّل، بما فيه الكفاية، لتكوين نُخَب عالِمة مؤثّرة في الساحة العلمية العالمية حاليًا، في الغالب الأعمّ. من ذلك على سبيل التمثيل لا الحصْر:

– بُعْد الجامعات ومعاهد البحث عن الوحدات الإنتاجية (لا أقصد هنا البعد بمعناه الجغرافي)، وغياب التكامل بينهما.

– محدودية الخدمات المكتبية التي توفرها هذه المراكز والجامعات للطلبة والباحثين، وعدم مواكبتها لِما يستجدُّ من دراسات وأبحاث علمية؛ لضعف إمكاناتها المادية في أكثر الأحايين، وعدم توفرها على كوادر كُفْأة في مجال العمل المكتبي، وعلى فهارس وافية مُحيَّنة...

– عدم توفر قاعدة البيانات والمعلومات التي من شأنها أن توافر إحصاءً دقيقًا للبحوث المنجَزَة، سواء داخل البلد الواحد أو على صعيد الوطن العربي، ولمَ لا على المستوى العالمي كذلك؛ ومن ثم تُجَنِّب الباحثينَ تناولَ موضوعات معينة، برؤى متشابهة أحيانًا، وهدر الطاقات والأموال والوقت...

– نقص المراجع الأجنبية بلغاتها الأصلية، وما تطرحه ترجماتها من مشكلات. وعدم تمكن كثير من باحثينا من الكفايات اللغوية اللازمة لإنجاز رسائلهم وأطاريحهم، بما فيها اللغة التي يكتبون بها هذه البحوث.

– عدم استثمار نتائج البحوث عمليًّا؛ ذلك بأنها تظل حبيسة رفوف خزانات الكليات والمعاهد، وحين يمرّ عليها زمن طويل تصير تلك النتائج مُتجاوَزَة!

– ضعف التعاون والتنسيق بين الجامعات ومراكز البحث العربية، وبينها وبين مؤسسات البحث العلمي في الدول الأخرى. ومما يُؤسَف له كثيرًا أنْ تجد مثل هذا التعاون والتواصل غائبًا بين مختبرات الجامعة الواحدة ومراكزها البحثية، بل إنك لَتَجِدُ أحيانًا باحثين من الجامعة نفسها لا يعْلمون بوجود معاهد ومخابر بحثية بعيْنِها داخلها! ومردّ ذلك، بالأساس، إلى غياب الإعلام والتواصل داخلها.

– مشكل النشر؛ لأنّ من الأبحاث ما يكون ذا قيمة علمية حقيقية، ولكنْ يحتاج إلى أن يُنشر في مجلات المؤسسة إذا كان لها انتشار واسع، وتتمتع بمقروئية كبيرة، وإلا فالواجبُ تسهيل نشْر مثل هذه المجهودات الجادّة الرصينة في مجلات عالمية معترَف بها، وتحمُّل مصاريف ذلك.

– تدني مساهمة القطاع الخاص في دعم مشاريع البحث العلمي ونشاطاته في العالم العربي؛ بحيث أشارت تقارير سابقة إلى أن ما يناهز 90% من الإنفاق العربي على هذا البحث مَصْدَرُه حُكوميّ. ففي مصر، مثلاً، يسهم الخواصّ بحوالي 10% في تمويل البحث العلمي، والجامعات بـ 30%، على حين تسهم الحكومة بـ 60%. وللإشارة، فإن مصر تحتل المرتبة الأولى عربيًّا من حيث عددُ حاملي البكالوريوس والماجستير والدكتوراه المشتغلين في مجال البحث والتطوير. وفي المقابل، نجد أن التمويل الحكومي لأنشطة البحث العلمي يتراوح ما بين 20% و30% في الدول المتقدمة، ويتحمّل الخواصّ والشركات العبء الأوفر من هذا الدعم المالي. فالقطاع الخاص، مثلاً، في الولايات المتحدة يسهم بنسبة 70% في مقدار الإنفاق على البحث العلمي، وتتجاوز مساهمته في تمويل هذا النشاط البحثي، في اليابان، الـ 80%.

– غياب سياسة واضحة للبحث العلمي في الوطن العربي؛ الأمر الذي يفرز ظواهرَ مِنْ قبيل الارتجال والعشوائية وغياب التخطيط. ويعد هذا العامل من أبرز معيقات البحث العلمي لدينا؛ كما يؤكد كثيرون. يقول صاحبا دراسة (مشكلات البحث العلمي في العالم العربي: رؤية إسلامية) إن «المشكلة لا تكْمُن في فقر الدول العربية، ولا في ميزانيات الجامعات العربية، ولا في ضعف الميزانيات المرصودة للبحث العلمي، بل تكمن – بالدرجة الأولى – في غياب السياسات الموجِّهة للبحث العلمي الوجْهةَ الصحيحة، سواء على مستوى الدول أم على مستوى الجامعات. وهذا ما نعتبره أسَّ البلاء، والأساسَ الذي يمكن أن تنبثق منه جميع المشكلات المتعلقة بالبحث العلمي في عالمنا العربي»[8]. ولعل هذا الكلام مقصودٌ به الدول الخليجية، التي تتوافر لها من الإمكانيات المادية والمالية ما يمكّنها من إمْداد جامعاتها بأرْصدة مهمة جدًّا، بخلاف ما عليه الأمر في سائر الدول العربية. ويلحّ آخرون على أنْ لا سبيل إلى النهوض والرقيّ في هذا المجال، على الصعيد العربي، إلاّ بوضْع إستراتيجية مُحْكَمَة فعّالة واضحة للبحث العلمي لدينا. إذ نقرأ – مثلاً – في كتاب (دليل البحث التربوي)، الصادر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: «لا يمكن تحقيق أي تقدم علمي حقيقي من غير وضْع سياسة عامة للبحث العلمي، وتحديد أهدافه ومحاوره وموضوعاته. ويجب أن تكون هذه السياسة واضحة لدى القطاعات المُنْتجة والخدمية، وتُبيِّن الأثر الذي يمكن أن تسهم به البحوث العلمية المحلية في إيجاد الحلول المُثلى للقضايا والمُشْكلات التي تعترض القطاعات الخاصة، بدل اعتمادها على الحلول الجاهزة والمُسْتوْرَدَة من الخارج. ومن هنا تأتي أهمية توفر سياسة تنظِّم البحث العلمي، وتضع أسسه، وتعمل على وضع الأولويات بما يخدم التنمية الاقتصادية والاجتماعية والعلمية»[9].

– ضعف إعداد الباحثين وتأهيلهم لممارسة البحث العلمي، مما يجعل عدداً منهم غيرَ متحكِّمين بَعْدُ في مهارات هذا البحث وتقنياته، رغم أنهم من المُفْترَض أن يكونوا قد درَسوا قَبْلاً موادّ في مناهج البحث وآلياته. ومن مظاهر ذلك الضعف: صعوبةُ اختيار موضوع البحث ومشكلته – نقص على مستوى التحكم في اللغات العالمية وتكنولوجيا المعلومات والاتصال – الارتباك في تطبيق المنهج أو المناهج المُختارة للدراسة – مشاكل على مستوى التعامل مع المحيط الوثائقي – ضعف فيما يخص الاقتدار على ممارسة مهارات التحليل والمقارنة والاستنتاج...

– أثر الاضطرابات السياسية سَلْبًا على تطوير البحث العلمي، وتوفير بنياته وما يستلزمه من أشكال دَعْميّة. فمن المعلوم أن دولاً عربية عدة عانت من تأثيرات هذا العامل؛ كما حصل في أثناء الحرب الأهلية في لبنان، والخلاف الذي نشب بين العراق والكويت، وتداعيات ما سُمي (الربيع العربي) على جملة من بلدان العالم العربي منذ ثلاث سنوات وما زالت مستمرة. على أن هذا العامل قد يكون مُحَفِّزًا على الاختراع والتطوير وإغناء حقول علمية بعينها، ونستحضر، هنا، ما وقع في فترة الحرب العالمية الأولى؛ حيث شجّعت ظروفها وما شهدته من تنافس وتصارع حادّ بين الدول الكبرى آنذاك على الابتكار واختراع أساليب جديدة في أكثر من ميدان، وأسهمت بقوة في تطوير صناعة الأسلحة ومُعدّات الحروب، وكانت وراء تشييد كثير من المراكز والمُنْشَآت ذات الصلة؛ إذ أنشئ خلال تلك المرحلة المجلس القومي للبحوث في الولايات المتحدة الأمريكية (1916)، وأنشأت بريطانيا – قبل ذلك – هيئة البحث العلمي والصناعة...

وبَعْدُ، فهذه لمحة عَجْلى إلى واقع البحث العلمي في الوطن العربي الذي يعاني مجموعة من الصعوبات والإكراهات، تجعله متخلفًا عن اللّحاق برَكْب البحث العلمي في البلاد المتقدمة. وقد كان مُسْتَنْدي في تقديم هذه الصورة التشخيصية له مجموعة من البيانات والمعطيات الإحصائية، التي تعود إلى سنوات مختلفة، ومن الدراسات الكشْفية المنشورة... ولن يرتفع هذا الوضع إلا بإيلاء مجال البحث العلمي ما يستحقه، فعلا، من عناية، وتوفير ما يحتاجه من موارد وطاقات على اختلافها، وتشجيع الباحثين المشتغلين به ماديًّا ومعنويًّا، مع ضرورة إعادة النظر في المنظومة التربوية والتعليمية المتّبعة الآن في العالم العربي عمومًا؛ باتخاذ مبادرات إصلاحية حقيقية تفضي إلى تجاوز طرائق التدريس التقليدية، واعتماد استراتيجيات ديدكتيكية أخرى تقوم على تكريس الحوار، وتشجيع الإبداع والتميز، وتثمين التعلم الذاتي، وغيرها ممّا يَضْمَنُ لتعليمنا تحصيل مُخْرَجات ذات جودة وكفاءة وفاعلية في المحيطين الخاص والعام معاً.

الهوامش

1 – دليل البحث التربوي، إصدار: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 2011، ص 9.
2 – نفسه، ص ص –16 17.
3 – نفسه، ص 17.
4 – مصطفى عبد العظيم الطيب: ضمان جودة البحث العلمي في الوطن العربي (دراسة تحليلية – ميدانية)، المجلة العربية لضمان جودة التعليم الجامعي، صنعاء، مج.6، ع.13، 2013، ص 101.
5 – نفسه، ص ص –104 105، بتصرف..
6 – عماد البرغوثي ومحمود أبو سمرة: مشكلات البحث العلمي في العالم العربي، مجلة "الجامعة الإسلامية"، جامعة القدس، مج.15، ع.2، يونيه 2007، ص –1137 1139.
7 – نفسه، ص 1140...
8 – نفسه، ص 1148.
9 – دليل البحث التربوي، ص 27.

18 ممارسة تستحق من خلالها لقب "ناشر"

عارف عبدالرحمن

نائب مدير إدارة النشر والترجمة
شركة العبيكان للتعليم

أسعد بتلقي آرائكم على حسابي في تويتر

@Aref__Atia

سألتني ابنتي يومًا ما وأنا أتأهب للنزول إلى عملي .. ماذا ستفعل اليوم يا أبي؟ وقبل أن أجيب بادرتني وقالت: هل ستطبع كتابًا جديدًا؟

دفعتني ابنتي دون أن تشعر إلى البحث والتقصي والقراءة والملاحظة، للإجابة على السؤال التالي: ماهو دور الناشر الفعلي؟ فوجدت من يصدر عشرة كتب فقط ومن يصدر الآلاف، كل منهما يسمى ناشرًا.. بل وأن نشاط النشر يدرج في السجل التجاري للشركة دون أن يصدر عنها ولو كتيب صغير لا تتعدى صفحاته خمسين صفحة.

إن لم يكن النشر مجرد نشاط تجاري في الأوراق الرسمية ... فما هو إذن؟ وما هو الدور الفعلي للناشر؟ وما هي الأدوار والممارسات التي من خلالها نطلق على شركة أو كيان وصف ناشر؟

إذا نظرنا إلى المعنى اللغوي لكلمة "نشر" فإنها تعني أذاع وأعلن، ونشر الأشياء أي فرقها ووزعها.

لذا فإن اصطلاحًا يكون جوهر دور الناشر هو الخروج بالمعرفة أو المعلومة إلى حيز العموم والانتشار في آفاق واسعة. لتحقيق هذا الهدف، فإن على الناشر أن يؤدي ثمانية عشر دورًا أساسيًا نسردها فيما يلي:

1) سبر الأسواق في مجال التخصص:

تخيل أن تجد عددًا كبيرًا من الكتب الصادرة عن دور نشر مختلفة خلال العام تتناول موضوع إدارة المشاريع، وفي الوقت نفسه لا تجد ولا حتى كتاباً واحدًا خلال العام نفسه يتناول موضوع فن التفاوض، لذلك على الناشر دراسة السوق باستمرار من عدة جوانب، من خلال تلك الدراسات يمكن للناشر أن يحدد مناطق الاحتياج ومناطق الوفرة في الإنتاج الفكري مما يقدم له مؤشرات تساعده في اختياره للأعمال المرشحة للنشر، ومن ثم يحدث توازن في الإنتاج الفكرى المتاح للقارئ.

2) بناء الاسم التجاري:

نرى اليوم من الناشرين من تميز في الإصدارات الطبية، وغيره قد برع في تقديم سلاسل من الإصدارات التي تتناول كافة موضوعات الحاسب الآلي والتقنيات الحديثة، لذا كان على الناشر أن يبذل الجهد في بناء هويته التي تجعل القارئ يتعرف عليه بسهولة ويبحث عن إصداراته لأنه واثق من أنها تقدم له قيمة مضافة على المستوى الشخصي والمهني.

3) جذب المؤلفين:

كثير منا وجد نفسه يأخذ قرار شراء كتاب بعينه بكل سهولة لمجرد أن رأى اسم كاتبه المفضل منقوشًا على الغلاف .. لذا فإن الناشر بخبرته يدرك اتجاهات القراء، ويسعى حثيثًا لاجتذاب الأسماء اللامعة والمحببة لدى القراء التي بدورها تلعب دورًا في تحقيق الرواج لإصداراته وتقديم قيمة مضافة للقارئ. وهنا يجدر القول بأن الناشر الواحد لا يمكنه الاستحواذ على جميع الأسماء اللامعة، وإنما سيقوم بالتركيز على الأسماء التي تتماشى وقيمه وتوجهاته ويعمل على جذبهم دون غيرهم.

4) تقييم جودة الأعمال المؤلفة وكذلك تكلفة الإنتاج والتسويق والفرص البيعية والتسويقية

في رأيي أن هذا هو أحد هموم الناشرين فضلًا عن كونه مجرد دور يلعبه الناشر.. فإن الناشر يجب عليه دراسة

مشاريع إنتاج الكتب من جوانب عديدة منها التكلفة المادية للإنتاج والمدة الزمنية التي يحتاجها الكتاب ليرى النور، مما يكون له انعكاس كبير على إقبال القراء على شراء الكتاب من عدمه خاصةً أن السوق يحتوي على العديد من الكتب التي تتناول الموضوع ذاته من جوانب مختلفة وعلى درجات متفاوتة من التحليل.

5) الاستثمار في كتاب بعينه:

إن قرار تخصيص ميزانية لإنتاج كتاب ليس سهلًا وخصوصًا أن أغلب التكاليف يتم سدادها مقدمًا وقبل إنتاج الكتاب وطرحه في الأسواق، فالأمر غاية في التعقيد من عدة جوانب- من الممكن إفراد مقال مستقل لها- ولعل قيام الناشر بتقييم جودة العمل بشكل موضوعي يسهم بشكل كبير في المساعدة على اتخاذ مثل هذا القرار. والحقيقة هذا الدور هو أحد الأدوار الجوهرية التي يقوم بها الناشر وهو بالفعل حجر الزاوية وفي رأيي أن باقي الأدوار تدور في فلك قرار الناشر بالموافقة على نشر الكتاب.

6) التفاوض مع مالكي الحقوق مثل المؤلفين/الوكلاء/ناشرين آخرين بشأن توقيع الاتفاقيات، ومزودي الخدمات مثل المصممين/المراجعين اللغويين/المترجمين وكذلك وكالات التوزيع بالإضافة إلى العملاء الراغبين في شراء إصداراته:

هذا الدور يذكرني بجدي وهو يغزل الصوف .. فإن الناشر يقوم بتحديد الجهات ذات العلاقة في إنتاج الكتاب وبيعه وتسويقه ومن ثم يبدأ في التفاوض حول الشروط والمواصفات وأوقات السداد ومعايير القبول وأوقات التنفيذ وغيرها بهدف الحصول على أفضل خدمة في أقصر وقت ممكن وبأعلى جودة، وبناءً على نجاحه في المفاوضات، يبدأ في إبرام العقود التي توثق العلاقة مما يجعل العمل يسير وفق ضوابط تحكم الجميع وتضمن حقوقهم في الوقت ذاته.

7) مراجعة وتحرير وتصميم المطبوعات بما يتناسب ووالفئة المستهدفة:

من الممكن أن يوافق الناشر على نشر كتاب لمؤلف ليس من أبناء البلد نفسه أو ربما قام الناشر بترجمة كتاب يقدم قيمة مضافة للقارئ، ولكنه قد يحتوي على بعض التعبيرات اللفظية المفهومة في بلد المؤلف ولكنها غير مفهومة في بلد الناشر ... دعني أضرب لك مثلًا لذلك: على المستوى الاصطلاحي، في مجتمعاتنا العربية على اختلافها يستخدم كل بلد لفظ مميز عن غيره المستخدم في بلد آخر بالرغم من أن المقصود واحد مثل (إدارة، دائرة / طالب/تلميذ، فروض، واجبات، كراسة/دفتر ، طماطم/بندورة...) بالإضافة إلى الاختلافات الثقافية، ويمكن القياس على ذلك العديد من الأمور التي تكمن بين سطور الكتاب أحيانًا، وتعبر عنها الصور والعبارات بشكل واضح أحيانًا أخرى، لذلك وجب على الناشر أن يدركها ويحددها وأن يعمل على معالجتها وتقديمها للقارئ بالشكل المقبول والمفهوم لديه. ويمكن التعبير عن هذا الدور بشكل مختصر باستخدام كلمة "المواءمة" وهو ما يقوم به الناشر من معالجة للصور والنصوص والموضوعات لكي تتناسب وثقافة الفئة المستهدفة (مجتمع/فئة عمرية/مستوى علمي).

8) تجهيز ملفات الكتب بحيث تصلح أن يتم إنتاجها وبيعها بأكثر من شكل:

يتمكن الناشر من الاستفادة من المحتوى بعدة طرق، منها ما هو معلوم الآن، ومنها ما قد يستحدث في المستقبل. فيمكن أن يتم إنتاج نفس المحتوى بعدة أشكال، منها الورقي المطبوع والمسموع والرقمي والتفاعلي، وأن يكون على شكل تطبيق أو خرائط ذهنية، حتى الكتاب المطبوع نفسه نجده اتخذ أشكالًا جديدة مثل الطباعة تحت الطلب، والطباعة المتزامنة، بل وذهب بعض الناشرين إلى أبعد من ذلك فأنتجوه ألعابًا ودُمَى للأطفال، ناهيك عن الإنتاج التليفزيوني والإذاعي والسينمائي الذي يعد أحد أشكال الإنتاج التقليدي للمحتوى. هذا لا يعني بالضرورة أن يقوم الناشر بإنتاج كل كتاب يقوم بنشره بجميع هذه الصور أو بعضها، ولا حتى أن يتخذ بنفسه قرار إنتاجه بأحد تلك الطرق، ولكن عليه أن يقوم بإنتاج الكتاب وفق مواصفات ومعايير متوافقة مع تلك الطرق المتعددة لإنتاج الكتاب، ومن يصنع القرار هو القارئ.

9) تحديد الأطراف ذات العلاقة والمصلحة في المساهمة بشكل مباشر في بيع الكتاب وتوزيعه:

"عزيزي مدير دار النشر: لقد تم طباعة الكتاب وهو الآن في المستودع" يتأهب الناشر لسماع هذه العبارة منذ أن بدأ عمليات الإنتاج ، ليبدأ على الفور في تنفيذ خطة التوزيع الذي أعدها مسبقًا ليحقق الكتاب انتشارًا في أكبر بقعة ممكنة من الأرض خلال أقصر مدة زمنية ممكنة عن طريق شركاء موثوقين. لذا على

الناشر أن يقوم بتكوين شبكة توزيع ومبيعات منوط بها عمل اتصالات على مستويات متعددة بداية من الزيارات الميدانية والمقابلات المباشرة وغيرها من وسائل الاتصال الفعال، بهدف تقديم الكتاب إلى الموزعين والعملاء ووكالات التوزيع وتوقيع الاتفاقيات معهم.

10) استخدام التقنيات الحديثة التي تعمل على خفض التكاليف ومستويات المخزون، تبني أنظمة حديثة، جمع وتحليل البيانات بهدف تسهيل الوصول للعملاء وحصولهم على إصداراتهم:

لا يخفى على أحد أن وسائل التقنية الحديثة المتسارعة التطور أصبحت كالماء والهواء، لا غنى عنها في أي صناعة، وبالتحديد صناعة النشر بوصفها إحدى أدوات نقل المعرفة، فهي أحق باستخدام التقنيات الحديثة في عمليات التأليف وإنتاج الكتب وتقنيات الطباعة وإدارة المخزون ومتابعة حسابات العملاء وغيرها من التقنيات التي تجعل من العمل متعة، وكذلك تجعل متابعة الأعمال اليومية سهلة ومتاحة على نحو واضح ومنظم وموثق. إن استخدام الناشر لمثل هذه الوسائل، يساعده على المضي بخطىً واثقة نحو التوافق والمعايير العالمية في صناعة النشر وأن يحتل مركزًا عالميًا مرموقًا في الصناعة.

11) تكوين شبكة مبيعات عالمية:

وأقصد هنا أن على الناشر أن يدرك طبيعة رسالته العالمية، وبالتالي يكون حريصًا على أن يكون ضمن أدواره تكوين وتطوير شبكة توزيع موثوقة تقوم بدورها في توفير إصدارات الناشر داخل البلد بشكل مهني، وكذلك القيام بتقديم آراء القراء عن إصدارات الناشر مما يساعده في تحسين وتطوير إصداراته ليتوافق واحتياجات مختلف الأذواق الفكرية.

12) تسويق إصداراتهم إلى الوسطاء مثل بائعي التجزئة والجملة:

منوط بالناشر القيام بالتسويق لإصداراته بنفسه ولو أوكل هذا الأمر إلى وكالات دعاية وإعلان، وإنما المبادرة واتخاذ المسؤولية تتكون من مهام الناشر، لأنه أكثر دراية بنقاط القوة في منتجه ويعرف مدى تميزه عن غيره مما هو متاح في المكتبات. لذا كان على الناشر أن يقوم بتقديم ملخصات عن كتبه وإتاحة المعلومات البيليوجرافية أو "ميتا داتا" عن الكتاب التي تصل أحيانًا إلى أكثر من خمسين معلومة عن الكتاب الواحد بداية من عنوان الكتاب إلى اسم المؤلف والمؤلف المشارك والمحقق والمترجم وعدد الصفحات والمقاس والوزن ونبذة عن الكتاب وصورة الغلاف ... تلك المعلومات تلعب دورًا فاصلًا في تسويق الكتاب وزيادة فرص بيعه وانتشاره. وقد يلجأ الناشر إلى فتح مكاتب إقليمية في المناطق المستهدفة في حال وجد فرصة كبيرة للمبيعات في ذلك الإقليم أو وجد نمو ملحوظ فيها.

13) تسويق أعمالهم لدى الفئات التي يتم استهدافها، وتعزيز المحيط الثقافي بغرض زيادة الفرص البيعية:

من الأدوار المنوطة بالناشر كذلك أن ينظم حلقات النقاش حول إصدارات معينة يقوم باختيارها وفق معايير يتم تحديدها مسبقًا مثل الإصدار الحديث أو موضوع الساعة أو مناسبة سنوية أو حفل توقيع وغيرها من المعايير التي لها مردود إيجابي على تسويق الكتاب، مثل هذه الفعاليات لها مردود إيجابي على جميع الأطرف، فالناشر يحقق الرواج والتعريف بإصدارات أخرى، والمؤلف يصل إلى آراء القراء في كتابه وكذلك يشرح بشكل موسع وجهة نظره في بعض المواضع التي قد لا يكون تناولها بالتفصيل الكافي، إضافة إلى القارئ الذي يستثمر الفرصة للحصول على إجابات لأسئلة دارت في ذهنه حول عديد من الأمور التي ذكرت في الكتاب وله أن يحصل على تفسيرات وإجابات من مؤلف الكتاب نفسه بشكل مباشر.

14) منح التراخيص إلى أطراف أخرى:

نتيجة طبيعية لرواج إصدارات الناشر في أكثر من بلد، يكون الطلب على ترجمة الكتاب إلى لغات أخرى، مما يتطلب الحصول على إذن الناشر قبل الشروع في عملية الترجمة، ويكون هذا الإذن بمثابة عقد يحدد كافة جوانب العلاقة بين كلا الطرفين. بهدف توفير تكاليف النقل والطباعة، فإن الناشر قد يمنح ترخيص طبعات في بلدان أخرى، ولا يفوتنا أن ننوه إلى خطورة هذا الأمر من ناحية السيطرة على الكميات المطبوعة ومتابعتها، لذا وجب على الناشر أن يختار بعناية فائقة الجهة التي يتعامل معها لطباعة إصداراته في بلد آخر قد لا تسنح له الفرصة زيارته إلا مرة واحدةكل عدة أعوام.

15) إدارة الموقع الالكتروني الخاص به وتوفير معلومات عن إصداراته ومؤلفيه والخدمات التي يقدمها بالإضافة إلى توفير نظام للشراء من خلاله:

في ظل التطورات التقنية المتسارعة، وسهولة الحصول على المعلومة من خلال الإنترنت، جاء دور الناشر في أن يعمل على توفير معلومات عن إصداراته ونشاطاته من خلال موقع إلكتروني خاص به، يكون بمثابة المكان الذي يجد فيه كل من القارئ والمؤلف ورجل الأعمال المعلومات المطلوبة والإجابة عن تساؤلات يريدون التوصل إلى تفسيرات لها، بل إن بعض مواقع الناشرين ذهبت إلى أبعد من ذلك لتقدم إمكانية الاستعراض المجاني لأجزاء من الكتب، إضافة إلى دورات تدريبية في التأليف ومسابقات للقراء والمؤلفين، وكذلك تسهيل تقديم أعمالهم للتقييم، إضافة إلى ربط موقع الناشر بحسابات الناشر في مواقع التواصل الاجتماعي، كل ذلك وأكثر يمكن تقديمه من خلال موقع الناشر الإلكتروني.

16) توفير كميات من إصداراته والاحتفاظ بها في المخزون وذلك بغرض تلبية طلبات العملاء والموزعين والوكلاء:

إن من مصلحة الناشر أن يحتفظ بكمية "معقولة" من إصداراته تحسبًا للطلبات العاجلة، مع الوضع في الاعتبار أن هذا الدور له حد معين إن تعداه أصبح يشكل عبئًا على الناشر وذلك لتكلفة إدارة المخزون وتجميد مبالغ استثمرها في تلك الكتب. ولم تغفل التقنيات الطباعية هذا العائق، فقد تم تطوير أحد الحلول وهو "الطباعة تحت الطلب" فيمكنك الآن كناشر أن تطبع نسخة واحدة أو عشر نسخ من إصداراتك وذلك حسب طلب عملائك.

17) تنفيذ الطلبيات وتوزيع الإصدارات بمختلف أشكالها الورقية -الرقمية- الصوتية - التفاعلية وكذلك التحصيل وسداد حقوق المؤلفين:

المسؤول الأول عن تنفيذ الطلبيات هو الناشر، حتى وإن كان له وكيل أو موزع معتمد، فيجب عليه أن يكون على دراية بالصعوبات التي تواجه شركائه، إضافة إلى ضرورة حصوله على معلومات محدثة باستمرار (آنية) عن مبيعات كتبه لأنه ملتزم بتعاقدات مع مالكي حقوق الملكية الفكرية ويجب عليه أن يقوم بسداد مستحقاتهم المالية حسب بنود العقود المبرمة معهم.

18) حماية حقوق الملكية الفكرية والعلامة التجارية:

في الحقيقة الموضع الطبيعي لهذا الدور هو أن يكون الأول، ولكني أردت أن أصحبك عزيزي القارئ في رحلة داخل صناعة النشر لندرك أن الناشر "مؤتمن" على أفكار غيره، قام بتطويرها من خلال عقود نظامية، دخل شريكًا في قصة نجاح مدروسة ليصل بفكر المؤلف وصوته إلى آفاق ما لم يكن يصل إليها دون الاستخدام الفعال لشبكة العلاقات والمصالح التي سعدت جدًا باصطحابك عزيزي القاري في دروبها، لذا حرص الناشر منذ البداية على إبرام العقود التي تحافظ على حقوق كل الأطراف وأن يحدد المسؤوليات كذلك بالإضافة اتفاقيات السرية، حتى بعد إصدار الكتاب وانتشاره في الأسواق، يظل الناشر مراقبًا حركة الكتاب ومؤشرات البيع والركود من مدة إلى أخرى مستندًا على خبرات كوادره البشرية تارة، وعلى اتحادات الناشرين تارةً أخرى، وثالثة بالتعاون مع وكالات مكافحة القرصنة بهدف منع الاستخدام غير القانوني لحقوق المؤلفين.

وفي الختام، يجدر الإشارة إلى أن كل ناشر يقوم بكل أو بعض هذه الأدوار يحدد مكانة في نفوس متابعيه وشركائه، وكذلك مستوى حرفيته في آداء دوره له بالغ الأثر في إنتاجه الفكري من الجوانب المعنوية والمادية.

قصة قصيرة

قمر

نهى محمد الربيع - السودان

كان هنالك قرية على بعد 10 كيلو جنوبًا من العاصمة وعلى ضفاف النيل تدعى الخضرا كانت قرية بسيطة يسكنها أناس بسطاء، لا يأملون إلا في الحصول على قوت يومهم، إذ إن كل ما يجمعهم هو الفقر والجوع وحبهم لبعضهم، وهو الذي يخفف عنهم الحياة البائسة التي يعيشونها.. كل من دخل هذه القرية قد سمع بأجمل ما فيها، وهي قمر..

قمر فتاة فائقة الجمال في الخضرا كانت حياتها كسائر أهل القرية بسيطة، حيث تعيش مع أطفالها وزوجها عبد المحمود الذي لم تكن تعرف عنه شيئًا حتى يوم زفافها، شأنها شأن فتيات الخضرا، حيث عاداتهم وتقاليدهم التي لم يكن أحد ليجرؤ أن يخالفها ...أما أسرة قمر فتشمل والدتها الضريرة عزيزة، ووالدها الكبير في السن عبد السميع، وإخوتها الصغار، وهم يسكنون بالقرب من منزل قمر .. وهي شابة مستقيمة طيبة في تعاملها مع الجميع، برغم ما يعرفه كل أهل الخضرا عن زوجها عبد المحمود وسوء أخلاقه، إلا إنها كانت تعد الأمر امتحانًا من المولى عز وجل لها، وكان كل همها تربية أولادها، فكانت تصحو مبكرًا لتقوم بإعداد الشاي والإفطار لأسرتها الصغيرة، ثم تذهب لتفقد والدتها عزيزة قبل أن تزاول عملها المعتاد في بيع الخضروات بسوق الخضرا، لتدخر من أجل إطعام صغارها، فوالدهم أحيانًا كثيرة لا ينفق على أولاده، بل إنه معظم الوقت يهدر أمواله في الخمر والعربدة ومجالس السوء.

ذاك اليوم وبعد إن مارست قمر مسؤولياتها اليومية، وبعد أن عادت من سوق الخضرا كالعادة، ذهبت إلى والدتها لأخذ صغارها، فوجدت والدتها عزيزة مريضة .. طلبت منها عزيزة أن تساعدها في تجهيز الطعام فمكثت عندها حتى نهاية اليوم، ثم أخذت صغارها ورجعت إلى منزلها.

أشرقت شمس اليوم التالي دون أن تظهر قمر ودون أن تلقي تحية، الصباح على جارتها وصديقة طفولتها تحية التي تعمل معها في بيع الخضر في السوق نفسه.. فقدتها تحية فذهبت لمنزلها فوجدت عبد المحمود زوج قمر سألته عن صديقتها، دون أن تلقي عليه التحية، فقد كانت لا تطيقه، شأن كل أهل الخضرا ...أخبرها عبد المحمود أن قمر عند والدتها عزيزة فتعجبت تحية لوجود أطفال قمر برغم غيابها فرجعت عنها إلى عملها، وكانت الحيرة تعصف بها طيلة اليوم، وفي نهاية العمل وعند رجوعها إلى المنزل وجدت طفل قمر يلعب مع أقرانه أمام منزلهم، فسألته تحية عن والدته، فذكر أنه لم يرها منذ أن استيقظ من نومه، فزاد حديثه هذا من دهشتها وذهولها، فتوجهت إلى منزل أهلها فلم يعرفوا عنها شيئًا عندها، لم تجد خيارًا آخر غير أن تخبرهم بذهابها إلى منزل ابنتهم وعن حديث زوجها عبد المحمود الذي لا يعرف شيئًا عنها وعن اختفاء قمر.....

وإن هي إلا لحظات حتى تجمع أهل الخضرا، وذهبوا جميعًا إلى منزل قمر، فوجدوا عبد المحمود الذي قال: إن قمر قد تكون هربت مع أحدهم، وأنه يشكك في أخلاقها وعدل اهتمامها به وبصغارها، ولا يريد أن يسمع عنها شيئًا ...

وإن هي إلا لحظات وتفرق أهل الخضرا، ليبحثوا عن قمر التي يحبونها جميعًا، ويعرفون أخلاقها الكريمة، وإنها لا يأتي منها هذا الفعل ... استمر البحث أيامًا وليالي دون أن يصلوا إلى قمر، وفي نهاية المطاف قرروا أن يلجئوا إلى الشرطة للبحث عنها، فرفض عبد المحمود زوجها تدخل الشرطة في بداية الأمر، فهو يرى إنها ستعود إليهم يومًا ما، وعندها سيحرمها من صغارها الذين تركتهم دون أن ترثي لحالهم وهربت مع رجل آخر.

انقسم أهل الخضرا إلى مجموعتين بعضهم وقف بجانبه، والبعض الأخر رأى أهمية تدخل الجهات الأمنية في الأمر الذي لا يشبه حال قريتهم الوديعة.....

ويمرور دقائق معدودة من إخبار الشرطة امتلأ المنزل بهم، حتى إنهم لم يتركوا أحدًا في الخضرا إلا واستجوبوه ....وعند البحث في المنزل لاحظ الضابط المسئول شيئًا آثار دهشته، وهو سجادة جديدة في إحدى الغرف بالرغم من أن الأثاث كان قديمًا متهالكًا، فسأل الضابط أحد صغارها عنها، فأخبره الطفل ببراءة الأطفال إن هذه السجادة أحضرها والدي قبل أيام محدودة، ويالیت كانت أمي قد رأتها لكانت قد فرحت بها كثيرًا ....

انتهى رجال الشرطة من استجواب أهل القرية، ولكن ظلت كلمات الطفل تتردد في ذهنه، وما كان منه إلا أن ذهب مرات ومرات إلى المنزل إلا أن بحثه لم يسفر عن شيء كالعادة، فراودته فكرة معينة وهي الاستعانة بالكلب البوليسي، الذي ما إن عرضت عليه رائحة ملابس قمر حتى هرول إلى فناء المنزل الخلفي، وأخذ ينهش في الأرض في مكان بعينه، ولاحظ الضابط أن هذا المكان من الجلي إن تربته قد ردمت مؤخرًا فراودته نفسه: هل يعقل هذا؟؟؟ فقاموا بالحفر في هذه المنطقة أمام كافة أهل الخضرا الذين تجمعوا ليجدوا المفاجئة التي لم تخطر على بال أحد ... قمر جثة هامدة ملطخة بالدماء وقد طوي جثمانها بسجادة بالية ...ألجمت الدهشة الجميع وتصاعد صوت البكاء والعويل لتظهر الحقيقة من اختفاء قمر التي لم تخطر على بال .. وقد شك الضابط في تورط عبد المحمود زوجها في الأمر، فقام بمواجهته واتهامه بقتل قمر، وبتضييق الخناق عليه اعترف عبد المحمود بقتل زوجته قمر التي اكتشفت عن طريق الصدفة إنه كان من أكبر مروجي المخدرات في المنطقة وهددته بفضح أمره والتبليغ عنه وما كان منه إلا إسكاتها للأبد بقتلها.....

الشّعر العربي المعاصر ومشكل الجدل ما بين التراث والحداثة

بغاديد عبد القادر - الجزائر

﴿ يكاد يُجمع الباحثون والمهتمون بدراسة التبادُلات الاجتماعية في مختلف المجالات الفكرية والمعرفية الأدبية منها والفلسفية، بأنّ هناك سيرورة من التطور تتّحدد بها الحركة الديناميكية لدى جميع الشعوب، ومن نافلة القول: إن هذه الحركة ليست على وتيرة واحدة في كل المجالات المعرفية، ما دامت هناك عوامل عدة تسهم في تسريعها أو الحدِّ منها، ولذلك شهدت بعض المجتمعات نمو وتيرة رافقتها تبدُّلات اجتماعية واقتصادية وفكرية كان لها الدور الأساس في الثورة النهضوية الحديثة التي انطلقت معها سمات الحداثة الأولى في أوروبا، والتي سرعان ما عمت جميع المجتمعات البشرية متفاعلة معها بأشكال متعددة تراوحت بين القبول والترحيب أو التحفظ والرفض.﴾

وتجدر الإشارة إلى أنّ الحداثة وما ارتبط بها من أفكار ومقولات وتبدُّلات ليست سوى النِّتاج الطبيعي لحركة التاريخ والتفاعل البشري – فمثلاً- لا يمكن فهم الحداثة الغربية إلَّا من داخل سياقها التاريخي من (ديكارت إلى غاليلي) وصولاً إلى النظرية النسبية (لأنشتاين) ونظرية (فرويد) النفسية وروحانية (برغسون) ووجودية (هايدغر)، وبعث الأسطورة على يد (السير جيمس فريزر)، وتراجع النظام البرهاني للعقل (ديكارت وباسكال)، وقيام فلسفة جديدة ترتكز على الذات فلسفة الباطن، و(نتشه) الذي أعلن موت الإله وسقوط العالم الفكري الماورائي في كتابه (هكذا تكلم زراديتش)، وشيوع مقولة (فرانسيس فوكوياما) نهاية التاريخ وغيابه في اللامعقول مع (مارتين ايدسون).

فالحداثة الغربية لم تتشكل إلا بعد تراكمات، وهذا ما أنتجه (ت. س. إليوت) في أرض اليباب اختزالاً للثقافة الغربية التي أنتجت إنسانًا ماديًّا وخربته معنويًّا وأحدثت قطيعة تاريخية ومعرفية إبستمولوجية، أو ما يُسمى في النقد المعاصر التجاوز والتخطي، حيث تبلورت مفاهيم جديدة، هذا ما دفع لقراءة الحداثة في سياق ملابسات حضارية وتاريخية يقول جون بوديار: «ليست الحداثة مفهومًا سوسيولوجيًّا أو مفهومًا تاريخيًّا يحصرُ المعنى وإنما هي صبغة مميزة لحضارة تتعارض وصبغة التقليد» أي أنها تعارض الثقافات السابقة.

لقد جاءت ردود الفعل من حول الحداثة متباينة خاصة في تلك المجتمعات التي لم تكن قادرة على مجابهة تحديات التطور الكوني، والذي أسهمت الحداثة الغربية في رسم مساره والتفاعل مع التطورات الحاصلة في الكون خاصة مع مطلع القرن 19م وحتى يومنا هذا.

غير أنّ هذه الخطوات التفاعلية ومواكبة تلك التطورات كانت ولا تزال مليئة بحروب الإخضاع والسيطرة والحماية والوصاية التي تشنها المركزية الغربية على كل ما هو عربي، ولذلك غرق مُفكرو العرب وأدباؤهم ونقادهم في جدال عقيم حول توصيف مفهوم الحداثة، وهل هي نتاج داخلي أم مستورد؟ وهل لها أن تتلاءم مع الأصالة أم تتعارض معها؟ وهل نحمي الموروث العربي ونحافظ على خصوصية التراث؟ وهل الحداثة مدخل لتذويبه والقضاء عليه؟ وهل يكفي استيراد مصطلح الحداثة من الغرب دون الحاجة إلى البحث عن الأفكار والمقومات التي قادتنا إليه؟

لقد أخل الناقد العربي حينما وضع الحداثة في موضع التعارض مع مفاهيم أدبية وثقافية سابقة عليها (التراث) فملء الساحة الأدبية والنقدية بعشرات العناوين المثيرة منها (الأصالة والتقليد، السلفيون والتحديثيون، الخصوصية والشمولية، الأنا والآخر، التقدم والتخلف، المادة والروح، الدين والعلم).

وانطلاقًا من هذه الثنائيات توسعت دائرة السجال الأدبي والنقدي في الساحة العربية أين جسد الشاعر المعاصر وجهًا غريبًا بملامحه التاريخية والمعرفية، فكان البحث عن المطلق بحثًا يائسًا في سياق حضاري حافلاً بالتناقضات، إذ بقيت القصيدة العربية المعاصرة تبحث عن المجهول وتعرض عن الزائف.

إنّ نظرة سريعة على الشعر العربي المعاصر سوف نجده ملتفًا بالغموض ومدثرًا بالإبهام والغرابة، بل ربما نجده يدور حول البحث عن المجهول أو المطلق بلغة لم تعهدها الذائقة العربية مما يصدم المتلقي ويحدث شرخًا في بنية نظامه المعرفي التي تعود عليها (عمود الشعر) أو «الشعر كلام موزون مقفى»[1].

ويعلق الدكتور عبد السلام المسدي رائد الأسلوبية العربية قائلاً عن الحداثة: «لقد فجرت الحداثة قوالب الصوغ الشعرية ففُتِّح للشاعر فضاء أدائي لم يعرفه الشعر الخليلي» وبهذا فقد تحول الشعر العربي من المفهوم الكلاسيكي القديم إلى المفهوم الحداثي بوصفه رؤيا أو على الأقل مشروع رؤيا في محاولة كشف لا تتحدد آفاقها ولا تنتهي أبعادها فهو يأتي من اللانهائي إلى اللانهائي، لا تحصره حدود ولا تقيّده شروط في بنية لغوية حطمت كل العلائق القديمة والمعايير السابقة، فلم يعد الشعر الكلاسيكي قادرًا على استيعاب هذه التجربة في غموضها واتساعها، فكانت حاجة الشاعر المعاصر إلى بدائل أخرى تلغي التناسب بين الأشياء على أساس الإيضاح المُعقلن بإقامة فجوة بين اللغة والأشياء، حيث جاءت القصيدة العربية المعاصرة تمردًا أفرزته ظروف العصر ومحاولة لتخليص الشعر والابتعاد به عن التقريرية أو الموضوعية العلمية.

فالشعر في المفهوم المعاصر لم يعد انسيابيًّا ينفلت من كل تعريف وينعتق من كل تحديد، لأنه ينبعث من معين متدفق يتسم بالديمومة والتجديد ويصدرُ من مجهول غير قابل للكشف، فالشعر المعاصر يعتمد على الرؤيا الاستكشافية ليتجاوز المعقول والمحدود ويتخطى الراكن الراكد ولذلك يقال: « الشعر المعاصر تجاوز وتخطى».

ولا يمكننا فهم الشعر المعاصر دون معرفة مرتكزاته الحضارية التي أفرزته فألبريس – مثلاً - يرى: «بأنه مرتبط بعقدة اجتماعية وروحية وسياسية وفلسفية، وأنَّ مثل هذا الشعر لا يوجد حيث يكون هناك دارجة تلبي الحاجة الدينية وعندما لا نجد الرغبة في المطلق نلبيه عن طريق لاهوت أو تصوف عامين يصبح الشعر من جديد الوسيلة للنفاذ إلى عالم سحري».

ولعل هذا ما يفسر الغموض والإبهام في الشعر العربي المعاصر الذي كان له وجود مشروط بوجود سابق مثلما كانت النهضة العربية مشروطة بحضور سابق للنهضة الغربية، وفي ضوء هذا حاولت الحداثة المتعربة الكشف عن المجهول ورفض الواقع العربي على الرغم من مغايرة هذا الواقع في حقيقته وبعده الديني عن الواقع الغربي، لأنه نشأ في حضن عقيدة شاملة كاملة لم تبلغ التعقيد الآلي لأرض اليباب لإلتوت فضلاً عن الخصوصية الذاتية، و لكن مقولة ابن خلدون تجد حضورها في هذا المجال «المغلوب مولع بتقليد الغالب في زيه ونحلته ومعاشه وسائر عوائده».

إنه الاستلاب الحداثي والقطيعة المزدوجة ومن ثم اختلاط الوهم والحقيقة ومحاولة تشكيل الأنا العربية من خلال الآخر الغربي، إنه تراكم شديد الغموض من المعارف المتضاربة، ومن ثم علينا فهم الحداثة العربية بمعزل عن الحداثة الغربية.

يقول الدكتور سليمان الواسطي «لقد شكّك شعراء الحداثة في كل ما هو عربي ودعا هؤلاء إلى الارتماء في أحضان الحداثة الغربية فكرًا ونمط حياة».

إنّ أي دراسة للتراث العربي يجب أن تنطلق من محاولة اكتشاف جماليته الذاتية وعبقريته الخاصة بعيدًا عن إصدار أو إطلاق الأحكام الجائرة وتطبيق المقاييس الخاطئة، فقد بات من المؤسف والغريب أن عددًا كبيرًا من اللذين أخذوا على عاتقهم مهمة التجديد في الشعر العربي نظروا إلى التراث نظرة احتقار كنظرة الغربيين حتى نهاية القرن 19م إلى تراث الشعوب غير الأوروبية.

وإن التساؤل الذي يطرح نفسه هو هل انقطعت الصلة تمامًا بين الشعر المعاصر وتراثنا؟ أم مازالت هناك علاقة تربط هذا الشعر بالتراث؟ وهل على الشاعر المعاصر أن يحدِّد موقفه من التراث؟ وهل يمكن أن يعيش شاعر في عصره ويُعبر في الوقت نفسه عن عصر آخر؟

لقد حاول الدكتور زكي نجيب محمود إعطاء مفهوم لمعنى العصرية في الشعر من حيث هو أساس لاتجاه التجديد المعاصر فرأى «أن جميع الشعراء الذين يعيشون بينا عصريون لسبب بسيط هو أنهم أبناء هذا العصر»[2].

إن قضية علاقتنا بالتراث لم تظهر مع ظهور تجربة الشعر الجديدة وكل ما في الأمر أن ظهور هذه التجربة كان باعثًا مثيرًا جديدًا لها وذلك عندما توقفت النَّظرة السَّطحية عن شكل التجربة ولاحت ترى فيها خروجًا سافرًا على تقاليد الشعر العربي المتوارثة.

وفي هذا يرى الدكتور عز الدين إسماعيل «أنه من العبث والمضيعة أن نظل حتى الآن نتجادل في أمر الشعر داخل إطار المعركة بين الجديد والقديم وينبغي أن ندع هذا التصور يتحلل في أذهاننا ويذوب، وأن نصرف جهدنا في دراسة الشعر سواء منه القديم أو الجديد إلى الشعر ذاته»[3].

إن تجربة الشعر المعاصر ليست تعبير عن موقف عدائي مباشر أو غير مباشر للتراث الأدبي العربي بعامة وللشعر القديم بصفة خاصة كما يرى البعض مِن مَن نسب لنفسه الغيرة على ذلك التراث وهو في الوقت نفسه لا يدري من قيمة هذا التراث الحقيقية شيئًا، ومن هنا نشأت معارك جوفاء حول هذه التجربة الجديدة لا تمس جوهر القضية في شيء، وإنما هي تعبر في أقصى عصورها عن موقف شخصي صرف لفئات متحاورة.

إن كل شاعر في تصوره أنه ابن عصره وأنه يمثله، ولكن صدق هذا التصور مرتبط إلى حدٍّ بعيد بمدى انهماكه في عصره وتفهمه لروحه، ومن ثَمَّ يتفاوت الشعراء في مدى تعبيرهم عن عصرهم وفقًا لمدى فهمهم لمعنى العصرية، ولنا فيما أقدم عليه أبو النواس قديمًا مثالاً صريحًا فقد شاء أبو النواس أن يكون عصريًّا بأن يهجر الحديث عن الأطلال والدِّمن، وذلك حديثًا ملائمًا للشعر في عصره حسب مفهوم أبي النواس، ورأى الشاعر أن يتحدث عن حانات عصره فجاء شعره جديدًا في شكله وإن تغلغل فيه نبض الشعر القديم وروحه، وقد نصادف في الشعر المعاصر ما هو مجرد اقتداء وتقليد للنماذج الأصلية لأشعار قديمة.

لقد حاول الشاعر المعاصر أن يضع لنفسه جماليته الخاصة سواء في ذلك ما يتعلق بالشكل والمضمون وهو في تحقيقه لهذه الجماليات يتأثر كل التأثر بحساسيات العصر وذوقه ونبضه، فجاء الشعر المعاصر محاولة لاستيعاب الثقافة الإنسانية بعامة وبلورتها وتحديد موقف الإنسان المعاصر منها، من أجل أن يحقق نوعًا من وحدة

﴿ لقد أخل الناقد العربي حينما وضع الحداثة في موضع التعارض مع مفاهيم أدبية وثقافية سابقة عليها (التراث) فملء الساحة الأدبية والنقدية بعشرات العناوين المثيرة منها (الأصالة والتقليد، السلفيون والتحديثيون، الخصوصية والشمولية، الأنا والآخر، التقدم والتخلف، المادة والروح، الدين والعلم)﴾

﴿ إنّ نظرة سريعة على الشعر العربي المعاصر سوف نجده ملتفًا بالغموض ومدثرًا بالإبهام والغرابة، بل ربما نجده يدور حول البحث عن المجهول أو المطلق بلغة لم تعهدها الذائقة العربية مما يصدم المتلقي ويحدث شرخًا في بنية نظامه المعرفي التي تعود عليها (عمود الشعر) أو «الشعر كلام موزون مقفى»﴾

﴿ لقد حاول الشاعر المعاصر أن يضع لنفسه جماليته الخاصة سواء في ذلك ما يتعلق بالشكل والمضمون وهو في تحقيقه لهذه الجماليات يتأثر كل التأثر بحساسيات العصر وذوقه ونبضه، فجاء الشعر المعاصر محاولة لاستيعاب الثقافة الإنسانية بعامة وبلورتها وتحديد موقف الإنسان المعاصر منها، من أجل تحقيق نوعًا من وحدة الفكر، فصارت كل قضية إنسانية يعيشها الإنسان في أي مكان على وجه الأرض هي قضية الإنسان كل الإنسان حيث ما كان ﴾

الفكر، فصارت كل قضية إنسانية يعيشها الإنسان في أي مكان على وجه الأرض هي قضية الإنسان كل الإنسان حيث ما كان.

لقد ارتبط الشعر المعاصر بالإطار الحضاري العام لعصرنا في مستوياته الثقافية والاجتماعية والسياسية المختلفة وهو في هذا الإطار ليس جديدًا وليس بدعًا، فقد كان الشعر دائمًا معبِّرًا عن روح الإطار الحضاري المتميِّز في كل عصر ومن ثم يُعد كل الشعر عصريًا بالقياس إلى عصره، ويرى الدكتور عز الدّين إسماعيل أن الشعر المعاصر لم يُسقط الزمن الماضي وما فيه من تراث من حسابه ولم يبتر الحاضر عن الماضي والمستقبل، وإنما أكد على ارتباط الحاضر بالماضي أو الواقع بالتاريخ.

كما يؤكد الدكتور عز الدّين إسماعيل على أن الشاعر المعاصر الذي ينفصل عن جذوره إنما يشبه النبات الذي يعيش على سطح ما، فلا يقوى على مقاومة التيارات العنيفة ويقدم لنا مثالاً عن ارتباط الشاعر المعاصر بالتراث من خلال مقطع من قصيدة فصل المواقف أدونيس:

« أقرا عليها صورة مريم
أهز فوقها جذوعي من الشوق والحلم
وأرسلها إلى أحبابي
مليئة كالتفاحة
خفيفة وخضراء كمهرة الخضر».

هنا نلمس صدى الآية الكريمة ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾وهو استغلال شعري يبين الأبعاد النفسية التي أخذتها الآية الكريمة في نفس الشاعر.

لقد حاول الشاعر المعاصر استيعاب التاريخ كله من منظور عصره، وفكرة الإنسان كما نعرف فكرة مرنة متنقلة وهي حية تنتقل وتشكل في كل عصر أشكال مختلفة، فعلاقة الشاعر والشعر بالتراث الإنساني علاقة جدلية لأن الشاعر المعاصر لا يقبل الموروث كله ولا يرفضه كله، وإنَّما تتمثل بينهما علاقة من التفاعل والتجاذب يصطفي من خلالها الشاعر من التراث ما يتناسب وروح العصر.

ولنا هنا أن نتوقف عند أبي القاسم الشابي في مداخلته حول الخيال الشعري عند العرب التي حاكم فيها الشعر العربي بأسره بمنطق رومنطقية القرن 19م في أوروبا وفرض عليه معاييرها حين قال: «قد انتهى بي البحث في الأدب العربي وتتبع روحه في أهم نواحيه إلى فكرة شائعة فيه شيوع النور في الفضاء لا يشذ عنها قسم من أقسامه ولا ناحية من نواحيه. وهذه الفكرة هي أنه أدب مادي لا سُمو فيه ولا إلهام ولا تشوف إلى المستقبل ولا نظرة إلى صميم الأشياء ولباب الحقائق، وأنه كلمة ساذجة لا تعبر عن معنى عميق بعيد القرار، ولا تفصح عن فكر يتصل بأقصى ناحية من نواحي النفوس»[4].

وصولاً إلى موقف أدونيس المطابق لما جاء به الشابي

إن أدونيس من خلال قوله لم يأتِ بنظرة عميقة ومثقفة في قضيةِ العلاقةِ بين الشاعر وتراثه، فهو لم يزد شيئًا مما كان يتردد في بدايات ما كان يسمى بالحركة الرومنطقية العربية، لأنه مازال يظُّن أن علاقة الشاعر العربي المعاصر بتراثه تعني تقبل تجارب الشعراء الآخرين السالفين وأقوالهم

فأدونيس يختصر الشعر العربي بأسره ويسحبه على الإنسان العربي في عصرنا بقوله: «وإذا عرفنا أن الجاحظ لا يُميز الشعر والخطابة بل يرى أنهما واحد أدركنا كيف أنَّ الشعر العربي يقوم على فضائل الأمية والبداهة والارتجال وهي فضائل لا يزال يعتمدها معظم العرب المحدثين قراء ونقاد وشعراء»، ويقول كذلك في كتابه (الثابت والمتحوّل) إذا سُئلت كيف تحدد علاقتك أنت الشاعر بتراثك العربي؟ أُجيب أولاً لا معنى لهذا السؤال، ذلك أنني لا أستطيع أن أحدد علاقتي مع شيء غائم غير محدد، وإنما أحددها مع شيء معين، وأجيب ثانيًا بتساؤل ماذا تعني العلاقة هنا؟

ويرى أدونيس: بأنه إذا كان هذا السؤال مطروحًا بمنطق الثقافة السائدة فإن هذه العلاقة تعني أن أكون مؤتلفًا مع تراثي أي أن لا آتي بشيء إذا لم يكن أسلافي من الشعراء عرفوه ومارسوه وأقّروه، ومن ناحية أخرى يرى أدونيس: بأن نفس السؤال إذا كان بمنطق الرؤية الإبداعية فإن هذه العلاقة تعني أن أكون مختلفًا عن أسلافي من الشعراء بل أكثر لا يكون الشاعر العربي نفسه حقًا إلا إذا اختلف عن أسلافه ، فكل إبداع اختلاف.

إن أدونيس من خلال قوله لم يأتِ بنظرة عميقة ومثقفة في قضية العلاقة بين الشاعر وتراثه، فهو لم يزد شيئًا مما كان يتردد في بدايات ما كان يسمى بالحركة الرومنطقية العربية، لأنه مازال يظُّن أن علاقة الشاعر العربي المعاصر بتراثه تعني تقبل تجارب الشعراء الآخرين السالفين وأقوالهم فهو كثيرًا ما يردد قوله: «إن أشكال التعبير* الموروثة لغة وبناء إنما هي بمثابة القشرة والسطح، ولا بد من تمزيقها لكي نصل إلى لغة وبناء جديدين»، وفي السياق نفسه يواصل قائلاً: «إنّ العلامة الأولى للجدة الشعرية هي في إيصال الاتصال أي في نفي السائد الممعم ورفض الاندراج فيه والانفصال عن الكلي العمقي، فالرفض أو النفي هو بهذا المعنى علامة الأصالة إلى كونه علامة الجدة».

إنّ ما يطرحه أدونيس في كلامه عن علاقة الشعر المعاصر بالتراث ربما يعاني من اختلاف المنهج فقد حاول الإفادة من علم اللسانيات الذي ارتكز عليه البنيويون في دراساتهم النقدية عندما أراد إثبات انقطاع الشعر المعاصر عن التراث فلجأ إلى التحديد الذي وضعه (فرديناند دوسوسير)للتفريق بين اللسان والكلام من حيث إنّ اللسان هو النظام اللغوي التي تحكمه مجموعة من القوانين والأعراف ويتشكل ضمنه الكلام وهو مجموع التجليات الواقعية لهذا النظام، فاللسان هنا حسب أدونيس هو اللغة العربية بكل ما تحمله وما تضمنته من احتمالات تعبيرية وليس مجموع ما قيل أو كُتب باللغة العربية حتى اليوم.

وقياسًا على هذا التفريق فإنّ أدونيس يرى أن هوية الشاعر العربي لا تتحدد بالشكل الكلامي الذي نطق به أسلافه الشعراء وإنما تتحدد بخصوصية اللسان العربي، ومن ثم فاللغة العربية ليست هي الشعر الجاهلي وكلام شاعر جاهلي ما لا ينبع من كلام شاعر جاهلي آخر، بل ينبع من اللسان العربي.

ومن هنا يستنتج أدونيس أن مسألة الوزن والقافية تصبح مسألة كلامية لا لسانية ومن ثم يمكن للسان العربي أن يتجسد شعرًا في بنية كلامية غير بنية الوزن والقافية، ليصل بذلك إلى تحديد ثلاثة أسس تُقوِّم العلاقة بين الشاعر العربي وتراثه:

1 – أن الشاعر العربي الحديث أيًا كان كلامه أو أسلوبه وأيًا كان اتجاهه هو تموج في ماء التراث، لأنه يكتب باللغة العربية.

2 – أن هذا الشاعر يتواصل في المد الشعري حتى يكون ضديًا.

3 – لا يمكن لهذا التواصل أن يكون فعالاً يُغني الإبداع الشعري إلا إذا كان انقطاعًا عن كلام الشعراء السالفين حتى لا يصبح الشعر تقليدًا.

وهنا ترى الدكتورة ريتا عوض أن أدونيس قد أخلط بين اللغة والأدب، فقد اعتبر أن الكلام هو مجموعة القصائد الشعرية العربية الكلاسيكية، وأن اللسان هو اللغة العربية ليحاول بذلك الوصول إلى نتيجة مفادها أنّ كل ما يكتب باللغة العربية هو بالضرورة تراثي، فإذا كان الكلام شعريًا هو مجموع ما أُبدع من قصائد فإن اللسان هو الشعر من حيث هو نظام تُستنتج مبادئه من التجليات الشعرية الموجودة، ويتخطاها بتحويل هذه المبادئ إلى إطار يضم الشعر، فتصبح هذه المبادئ بالنسبة للشعر كما هو علم اللغة من حيث هو موجه وقياس، وفي هذا الإطار يتم الإبداع لا بما هو استنساخ لنماذج شعرية جاهلية أو أموية أو عباسية، وضمن ذلك غزلية أو رثائية أو هجائية أو ذات وحدة أو تنوع أو إلغاء للوزن والقافية بل بما هو إبداع لقصائد جديدة ضمن إطار العبقرية الشعرية العربية.

إنّ أدونيس في حديثه عن الحداثة لم يكن سوى استمرار للمذهب الرومنطقي* الذي قام الشعر والنقد في الغرب على أساس نقضه، فأدونيس حاول نفي وإلغاء قضية العلاقة بين المعاصرة والتراث عندما رأى بأن أي كلام أو أسلوب أو اتجاه معاصر مهما كان مرتبطًا بالتراث محاولاً أن يدعي لمفاهيمه صبغة الموضوعية والمنهجية حين عاد إلى اللسانيات غير أنه أساء تطبيقه على الشعر حين وقف موقفًا ضديًا من التراث عندما توهم أن الإبداع انقطاع عن التراث، بينما الحقيقة أن الاتجاه النبوي في النقد العربي الذي استفاد من علم اللسانيات قام على التأكيد على ارتباط القصيدة الواحدة بالتراث الشعري من دون الوقوع في وهم الخوف من النقل أو الاتباع أو الاستنساخ.

وهذا ما يمكن تفسيره بعودة الأدب الحديث الغربي إلى الأسلوب الملحمي في أعمال أدبية أساسية خصوصًا مع جيمس جويس في كتابه يوليسيز (عوليس)، الذي استلهم فيه البناء الملحمي الهوميري، كما نجد إليوت يعرف التراث، قائلاً: «إن التراث يتضمن أساسًا الحس التاريخي الذي ينطوي على إدراك نافذ ليس لماضوية الماضي فحسب بل لحضوره، وهو يُلزم الشاعر بأن يكتب لا بوعي الانتماء إلى جيله فحسب بل بتأثير الشعور بأن أدب بلاده بأسره موجود بشكل متزامن ويُؤلف نظامًا متزامنًا، هذا الحس التاريخي هو حس بالسرمدي والزمني معًا وهو في الوقت نفسه ما يجعل الكاتب يعي بحدةٍ مكانه في الزمن أي كونه معاصرًا»[5] .

إنّ منهج المقارنة أو الموازنة استبد بشعرائنا ونقادنا في معظم الحالات، فما كادوا يدرسون شيئًا من الشعر المعاصر حتى عكسوه على الشعر القديم قاصدين بذلك بيان روعة الجديد وتميُّزه عن القديم، والأمر سيان كذلك بالنسبة لمن يدرسون الشعر القديم فإن تعاطفهم معه وإعجابهم به دفعهم إلى تهجين الجديد والمجدِّدين وهكذا أحدث شقاق مفتعل لم ينتفع منه أحد.

وعلى الدارسين والنقاد الخروج من ربقة هذا التصور وهنا دون إنكار أهمية الموروث العربي في أي دراسة نقدية ومحاولة اكتشاف قيمته وخصوصياته، وكذلك بالنسبة لعلاقة الشعر المعاصر أو أي تجربة شعرية جديدة بالتراث الأدبي فهي ليست علاقة عداء، فالمغايرة لا تعني المعاداة فإذا كانت التجربة الجديدة تختلف في منحاها الجمالي شكلاً وموضوعًا عن منحى الشعر القديم، فينبغي أن لا نسرع فنستخلص من هذا أن أصحاب التجربة الجديدة يعادون التراث، فالشعر المعاصر وليدًا شرعيًا لكل ما سبقه من اتجاهات.

ولنا هنا أن نتأمل في التجارب الشعرية الأولى من خلال المحاولات الأولى فرغم ما ظهر فيما من مغايرة نسبية لإطار الشعر القديم شكلاً وموضوعًا فهي قريبة بروحها من الشعر القديم، وأثبتت وجودها في إطار التراث لا غير، فقد كان الأصليون من رواد النقد الأدبي العربي مدركين لدورهم الحضاري وموقعهم النهضوي فكانوا واعين لعلاقتهم بالتراث، وعليه فيجب أن تكون الحداثة حداثة من يعي ذاته الحضارية ويعي غيره بوعيِّه لذاته، ومنه على الشاعر العربي المعاصر اختيار سبيل لثورته لتحقيق النهضة كفاية وأن يحدد علاقته بالتراث عن طريق اكتشاف العناصر الحية فيه التي تمكنه من الارتباط بها والتأسيس عليها والانطلاق منها.

إنّ العودة إلى التراث ليست عودة لإحياء الأنماط والنماذج التي استقرت في قوالب جادة، بل العودة إلى الينابيع التي تفجرت منها روح حيوية ولدت أنماطًا جديدة

إنّ العودة إلى التراث ليست عودة لإحياء الأنماط والنماذج التي استقرت في قوالب جادة، بل العودة إلى الينابيع التي تفجرت منها روح حيوية ولدت أنماطًا جديدة، ويعد الشاعر خليل حاوي بوعيه وثقافته وتجربته الشعرية خير من عبر عن مسألة التراث وعلاقته بالحداثة والتجربة الشعرية حين قال: «حين أُعيد النظر في نهضة الشعر العربي أرى أننا كنا نحاول واعين أن نحدّث ثورة، تجعل الشعر الحديث ينفصل عن الشعر العربي بقدر ما يتصل به، وكان كل منا يحاول الانطلاق مما يراه عناصر حية في التراث، وأعتقد أن كل نهضة شعرية في أمة تحمل تراثًا شعريًا عريقًا متراكمًا لا بد لها العودة إلى الينابيع الأصلية التي كانت مصدر كل نهضة في الماضي»[6] .

لقد حاول خليل حاوي من خلال هذا النص أن يُبين لنا بأنه علينا إدراك البعد الحضاري للشعر وأن نكون واعين لدوره الحقيقي، لأن دور الشاعر هو تحقيق البعث الحضاري من خلال إعادة ربط الشعر بالبناء الحضاري الذي ينبثق الشعر عنه ويكون صورة له، فالشاعر الحقيقي هو الشاعر الذي يعي جيدًا ويدرك العلاقة الجدلية التي تربط بين الإنسان والحضارة، من حيث الإنسان هو أبو الحضارة وابنها، وهو الفاعل فيها والمنفعل بها، وعلى الشاعر العربي المعاصر أن يعي التحديات التي تواجهها الأمة العربية، لأنه جزء منها بمعاناته العميقة، فالشعر لم يعد بوحًا ذاتيًا ولا انعكاسًا لهموم شخصية ولا وصفًا لمظاهر خارجية فقد اتجه اليوم الشاعر المعاصر إلى التعبير عن ضمير الأمة في همومها الحضارية.

إنّ الماضي يجب أن يبدله الحاضر كما أن الحاضر يوجهه الماضي والشاعر الواعي والناقد المتمرس يكون واعيًا لمدى الصعوبات الكبيرة التي يواجهها ولمسؤولياته العظيمة، فالتعبير الشعري في تراثنا القديم وفي عصرنا الحديث انعكاسًا للاتجاهات الحضارية والتوجهات الفكرية، ومنه كان اللقاء بين الأصيل من الشعر العربي الحديث والتراث لقاء تواصل وإبداع.

فالعلاقة بين الحداثة والتراث قضية يطرحها كل عمل فني يتم إبداعه، وعلى نُقادنا أن يتمكنوا من وضع أسس نظرية لمفهوم الحداثة في الأدب، وأن يرسوا مبادئ فكرية تحدد علاقة الشاعر والأديب بتراثه وبالتراث الإنساني ككل، حتى نتمكن من دراسة شعرنا دراسة جدية وقيِّمة من خلال الوعي التام بأهمية التراث، لا في مجال الشعر فحسب، بل على جميع المستويات الحضارية والثقافية. فالأمة التي لا تعي ماضيها تعيش على هامش التاريخ الحاضر وتمارس ضد ذاتها عملية إبادة.

الهوامش

1 – قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ص: 64 .
2 – زكي نجيب محمود نجيب: فلسفة وفن ، ص: 345 .
3 – عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية و المعنوية .
4 – ريتا عوض: تراثنا والحاجة إلى نظرة موضوعية ، العدد 609 ابريل، 2001، ص: 69 .
* مؤسس علم اللسانيات الحديث .
* مذهب قام على رفض الكلاسيكية .
5 – نقلاً عن: مجلة العربي الكويتية، الشعر والتراث تواصل أم انقطاع، ريتا عوض، عدد 508، 2001م، ص:22.
نقلاً عن: مجلة العربي الكويتية، الشعر والتراث تواصل أم انقطاع، ريتا عوض، عدد 508، 2001م، ص:22.
6 – نقلاً عن: مجلة العربي الكويتية، الشعر والتراث تواصل أم انقطاع، ريتا عوض، عدد 508، 2001م، ص:22.